

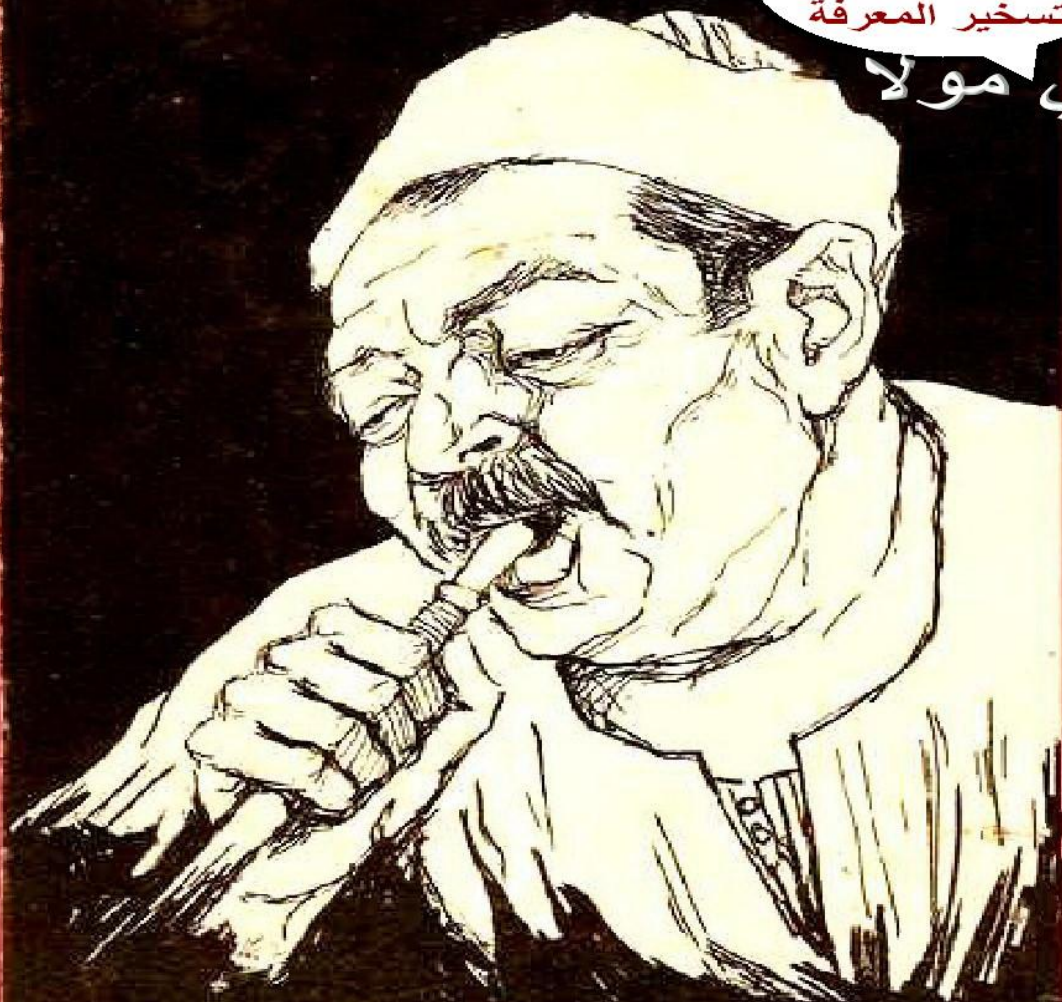
منتدى الكتب العربية والمعربة
عالم الكتب

القراءة زاد المعرفة ، والتفكير . لتسخير المعرفة
علي مولا

محمود السعدني

القراءة زاد
المعرفة والتفكير
لتسخير المعرفة

علي مولا



جنة رضوان

أيهما أفيد لك .. وأصدق أثرا في نفسك .. الكلمات التي تصف لك التفاحة بانها حمراء ولديرة .. أم خم التفاحة الأبيض السكرى الذي تفرس فيه أسنانك ، وتمتع بمذاقه لسانك ..

أيهما أكثر خلودا في هذا الكتاب .. مقمتى بكلماتها المتفرقة التي تجوم حول المؤلف وتتسلق على قصصه كالنبات الطفيل .. أم صلب الكتاب نفسه .. بما فيه من أشخاص وأجواء وسرد وحوار ..

هل ابتاع القارىء هذا الكتاب ليقرا مؤلفه أم لي .. انى أعتبر دائما .. الكتاب أيا كان .. هو الأصل .. اما المقدم .. والمعلق .. والناقد ، والمفسر ، كل هؤلاء فروع للاصول .. او هوامش للصحائف ..

وأنا أقدم هذا الكتاب لأؤكد قبل كل شيء عدم جدوى المقدمة .. التي يقدم بها الكاتب .. كتاب آخر .. ولأؤكد اننى أحس .. وأنا أقدم الكتاب احساس حارس السيرك الذى ينق بجرسه ليعلن للناس انه هنا كذا .. وكذا .. وكذا .. وبقي على بعد هذا الايضاح الذى شغلت به معظم مكان المقدمة .. ان أقدم المؤلف .. وأقول رايى فيه وفى قصصه .. وأنا أسأل القراء أين اللوق أنا سيقمهم بحكمى .. وافرض عليهم رايى قبل ان يكونوا هم رايهم ..

ألم يكن من اخير أن اضح عضعتى فى ذيل الكتاب .. لاوضح لهم رايى قد يشاركونى فيه وقد يختلفون معى فيه ولكنى فى هذا الخيال لن أكون مقدما .. بل معلقا .. أو ناديا ..

ومع ذلك فليس لي اعمى الا ان أقدم الكتاب .. وعزى بعد ما قلت .. انى اقوم بمجرد واسطة تعارف .. وانى لا افضل أكثر من أن .. أقف بين السعدنى وبين القارىء لاقول لكليهما .. صديقى السعدنى .. صديقى القارىء .. وحتى هذا العلو .. أحس كثيرا بضيقه .. لاننى اختى أن يهز صديقى القارىء رأسه .. ليسألنى من أنت .. ثم يشد على يد السعدنى فى الشوق .. ويحيه قائلا .. أزيك يا محمود ..

بين مقدمتي .. وأجراس السيرك بقلم يوسف إسماعيل

أتري مقدمتى هذه قيمة ؟ ..

أتراي لو صنعت للمؤلف عقود المديح .. وقلت عنه انه عبقري لودعى العلى .. وقلت انه قد فاق جوركي وتشيكوف وموباسان وزفنج .. وان قصصه بلغت من دته التحليل وروعة الرصف وصلح حوار .. ما لم تبلغه قصص من سبقوه من عباقرة الأدب واساطير القصة ..

أتراي لو قلت عنه كل هذا .. ولم يكن هو شيئا من هذا هل يصدقنى القراء .. ويكذبون أنفسهم وذوتهم وحكمهم .. هل بلغ كائن من كان من قوة السيطرة والافتاع .. الخد الذى يستطيع تضليل القراء عن مشاعرهم الصادقة .. وتشكيكهم فى أفواقهم السليمة .. وتحولهم عن أحكامهم الخفة ..

وإذا كان المؤلف .. هو حقاً .. هذا الذى قلته .. عبقريا ألياً .. لودعى .. وإذا كانت قصصه قد بلغت مثلا هذه العفة والروعة والصدق ..

أية قيمة لمقمتى الهائلة بجوار عبقريته والعبية ولودعيتيه ، وما حاجتى وحاجة المؤلف وحاجة القراء الى أن انبههم ببعض الالفاظ الرنانة للمعادة المكررة .. الى ما ينفذ الى قلوبهم .. ويهز مشاعرهم .. ويرسب فى اعماقهم ..

أية قيمة لأجراس المعلن الرنانة الجوفاء ، .. بالنسبة لاصالة البضاعة وجودة السلعة ..

أجل .. لم لا يكون القارئ الذي أقدم له كتاب السعدني
أعرف بالسعدني متى ؟ ..
المسألة كلها إذا .. احكام لا يمرر له ..
ومع ذلك ليس أعلمى الا أن أقدمه .. وأمرى لله ..
محمود السعدني .. كما أعرفه .. انسان ذكي .. متهور ..
شديد الحساسية .. سريع الالتقاط .. حاضر النكتة ..
سريع الخطر ..

وهذه الصفات لاشك تجعل منه كاتب قصة ممتاز .. فهو
يستطيع أن يختزن في ذاكرته صورة من حياته وحياته العبر
حافلة بالتفاصيل زاخرة بالذائق .. وهو يستطيع أن يلتقط
من الشخصيات الجهة المحيطة به في ماضيه وحاضره ..
ما يجعل منه رصيد ضخم يستغله في قصصه بكل ما ذق من
سماته .. وما خفي من صفاته .. وما تعقد من انفعالاته ..
وقد سمعت من أحد الزملاء أن محمود السعدني يستطيع
أن يحكى خيرا مما يكتب ، وأنه ربما كان أكثر نجاحا لو نشر
بالتليفزيون منه بالكتابة ..

وقد يكون مبعث هذا القول ان السعدني راوية ممتاز
ومقلد ماهر ومحدث لبق خفيف الدم .. وأنه ألد على التعبير
باللسان منه بالقلم ..

وقد يكون مبعثه .. ان محمود لا يملك الرصيد اللغوي
الضخم .. الذي يعتبر كبار الكتاب المقدم الاول للكاتب ..
ومع ذلك فانا لا أرى هذا الرأي .. وأدفع بطلانه ..
بالدليل الواقعي وهو قصص محمود .. فهي - أعنى الكثير
منها - قصص ممتازة .. لا يمكن أن يحس فيها بنقص مبعثه
الحاجة الى هذا الرصيد اللغوي المزعوم ..

واعتقد أن معظم كتاب القصص الجند .. قد قدموا مادة
ممتازة رغم خلوصهم جميعا من هذا الرصيد .. وانهم قد
اثبتوا ان أهم مقومات الكاتب الناجح ليس الرصيد اللغوي
بل القدرة على التعبير عن الاحساس الصادق بأبسط ..
الالفاظ السهلة المتناولة على الالسنه .. وأنه لم يعد يعبر
الكاتب ابدا ان يطبق الكلمة ثم يضع فوقها رقعا ثم يشرحها
في هامش الكتاب بلفظ اسهل ..

وتقتصر السعدني معبرة - فيما اعتقد - عن تجارب واقعية
وشخص حية عرفهم وتقابل معهم .. ومعظمها من شرائح
أو قطاعات منتظمة من الحياة .. يبتدئ فيها صدق اخاذة ..
وحيات الشخصية .. وإن كانت واهية البناء .. اذ قودنت
بقصة من قصص ستيفن زيفج .. شأنها في ذلك شأن الكثير
من قصص الكتاب الروسي تبني على مجرد وصف لشخصية
أو لموقف لقصة « زميلان في الشاؤرة » .. أو « الزوجة »
لتشيكوف ..

وقد سبق أن أبيت رأيي في هذا النوع من القصص بأنه
أسهل القصص تناولاً وأقلها جهداً .. ومع ذلك لا أحب أن
أفرض رأيي هذا على أحد .. ولا سيما .. وإن هذا النوع
هو مودة الكتابة .. في هذه الأيام ..

وبعد .. هل افلحت في تقديم المؤلف والكتاب أم كانت
مقصدني لا تعدو ذقات الاجراس على أبواب السرك .. على أية
حال .. لتفضل القراء الى الداخل .. اعنى داخل الكتاب
وليحكموا بأنفسهم على السعدني .. وكتابه ..
والسلام عليكم ..

« يوسف السباعي »



خيم السكون والليل على « دحدوية » ابن طولون ، ولقت الظلمة الحالكة كل شيء في المر الضيق الملتوى اللتصق بجدار الجوامع العتيق ، وخلا الطريق من كل شيء الا من وقع اقدام بعض الرجال المتعبين العائدين الى منازلهم في اعلا الدحدوية ، أو طفل يجلس القرفصاء بجوار الحائط يقضي حاجة .

ولكن من أول الدحدوية كان يبدو نور قهوة المعلم سلطان باعرا كضوء الشمس ، وصوت الراديو يطلع من بعيد ، وعلى الضوء كانت اشياح الجالسين في حشقات تظهر بوضوح ، وهم يتبادلون الجوزة فيما بينهم في استرخاء طبيعي لذينة . والواد برهومة ينف كالدبور حول الزبائن والكراسي وصوته يملأ الجوع الفاضل وع اللبان ، وعندما شاهد المعلم رضوان مقبلا من

بعيد على أول الدحدوية هتف وهو يضبط ساعته على التاسعة تماما :

— كراسي يا واد للمعلم رضوان وصحبته ..
ومع أنه لم يكن هناك واد سيلبي نداء برهومة ، الا انها كانت عادته دائما كلما لمح المعلم رضوان مقبلا من بعيد .
والمعلم ورضوان زبون دائم منذ أكثر من عشرة أعوام ، لم يتخلف يوما عن موعد حضوره الى المقهى كل مساء في التاسعة تماما . فهو يعمل خبازا في فرن مجاور للمقهى ، وهو يبدأ عمله في الثانية عشرة تماما ، فهو يقضي في المقهى كل يوم ثلاث ساعات ، وكانت فلسفته دائما التي يشرحها لكل من يسأله عن عسر مواظبته على موعد المقهى :

— ونعمل ايه ، عثمان يبقى البيت جنب الفيظ ، مش احسن ما نروح سيبا ولا نسكر ونعمل منكر مايرضيش الله !
والحقيقة ان المعلم رضوان لم يقضب الله أبدا .. فهو في الخمسين من عمره الآن ، وهو منذ أن ماتت زوجته وهو يعيش حياته على وقيرة واحدة . من الثانية عشرة حتى الصباح أمام النار يخبز العيش ، ومن الصباح حتى غروب الشمس نائم في البيت ، ومن التاسعة حتى بدء العمل في الفرقن على مقهى المعلم سلطان . وهو لا يأتي الى المقهى وحده ، بل دائما تحوطه شلة من الاصدقاء ، هو دائما اعلمهم ، ودايما اغناهم ، فيجمع الطلبات التي تنزل الارضية على حساب المعلم رضوان وفي ذلك المساء عندما حضر ومعه شلته اختاروا مكانا خارج المقهى وجلس صامتا يكركر في الشيشة العجمي التي لا تمارق فيه أبدا مادام هو موجود في مقهى المعلم سلطان ، ولكنه فجأة قطع الصمت المخيم على الجميع وهتف في صوت مملوط :

— أنا حلمت حلم النهارده وبتا يجعله خير ..
وهتف الكل في نفس واحد :
— خير انشاءه ..
وعاد المعلم رضوان يقول في نفس الصوت المنغم المملوط :
— خير !! حلمت ان واحد جه صحاني م النوم وقال لي قوم يا رضوان ، قلته على فين ، قال لي خلك عاوزك ، قلت سبحان الله لا اله الا الله .

ويلا سبب أو ميرز مفهوم ، هتف أحد الجالسين على الفور
- يا سلام يا معلم .. يحيى العظام وهى رهميم .
- أمال ، قلنرة ، الغرض أنا تمّت معاه على طول .. فضلنا
ماشيين مع بعض لما صادفتنا باب الأخضر دخلنا منه .
وقطع الحديث رجل آخر ، صف وجسمه كله يهتز من
الفتنة .
- الله أكبر .. ربنا يوعدنا ، حاكم الباب الأخضر ده
حير .

وفى ثقة واطمئنان ، قال المعلم رضوان :

- أمال !! الغرض دخلنا م الباب الأخضر بصيت لقيتلك
جنابين على كل لون ، ورد ، وزرع ، وخضرة ترد الروح ،
وقواكه من كل صنف الهاش سمر .. جوافه ، وقول أخضر ،
وتفاح أمريكاني م الى كان بييجي هنا قبل الحرب ، حاكم
التوع الى شفته ده فى الحلم ، عنيه ماشقتوش بعد الحرب
أبدًا ..

ورد شاب صغير كان يجلس مع الجمع المحتشد حول المعلم
رضوان :

- يا بخت الى عاش قبل الحرب ، ده أبويا يقول ان العشر
ببضات كانوا بقرش واحد .
وعلق بعض الجالسين على كلام الشاب بفتور .. وعاد المعلم
رضوان فاستأنف حديثه على الفور :

- الغرض بصيت لقيت فى الناحية الثانية وحوش من كل
نوع ، غزلان تلاقى ، سبوعة تلاقى ، لبو تلاقى .. انما هادية
ووافقة ساكنة بأمر وبها . سألت المذبح الى معاني فى الحلم ،
قلته احنا مين ؟ .. قالى احنا فى الجنة يا عبيط ، وهو قال
الكلمتين دول .. وبصيت مالتقوش قدامى وصحيت م النوم
قلت اللهم اجعله خير يارب .

وهتف الجميع فى نفس واحد :

- خير انشاءه ..

وقال واحد :

- ده ربنا كتبلك طولة العمر ، حاكم الموت فى الحلم يعنى
عمر طويل .. كل شي يبقى عكسه فى الأحلام .

وضحك المعلم رضوان فى فتور .. وقال :

- والا الموت يا سيدى ، ما كلنا لها ، حد بيختل فيها .

وقال بروهمة الجرسون ، وكان قد سمع شطرا من الحديث :

- أبدا وحياتك يا معلم .. شقى وأخرتها قطنة ، ويأربت
نطولها .

وجسب المعلم رضوان عدة أنفاس متلاحقة محسومة من
الشدية ، ثم قال فى هدوء :

- يا عم والله بنتمناها ، محيه مقابلة ربنا حد يطولها .. بس
ربنا يجعل آخرتنا حلوة ، وتشوف الجنة ..

وسكت قليلا قبل أن يقول :

- دى الجنة حلوه يا جدعان ، اللهم صلي على أجدع تبي ..

ثم رفع يديه فجأة الى السماء .. وهتف على الفور :

- التأتحة على روح أمواتنا وأموات المسلمين ..

ورفع الجميع أيديهم الى السماء ، وقرأوا التأتحة فى صوت
خفيض ثم مسحوا وجوههم بأيديهم وجلسوا صامتين ، وقطع
الضمت واحد منهم ، قال فجأة وكأنه يريد أن يطمئن نفسه :

- الجنة حلوه ، بس مين يطولها يا معلم .

وفى الحال رفع المعلم رضوان ساقه ووضعها على الساق
الأخرى ، ومال بنصقه الأعلى الى الأمام ، ونظر بعينيه
الضيقتين الى محدته ، وقال فى هدوء شديد :

- كل المسلمين عيطلوهما ، حاكم النبي بتاعنا متشجع لنا ،
ووارد فى الكتب حديث عن النبي يقول « يارب أمة المسلمين
أنا متشجع لها » .

وفتح السائل فمه فى دهشة وعجب ، وقال :

- يا سلام ع القدرة يا جدعان ، بقى معنى الواحد عيشوف
الجنة ، سبحان الله . أنا كنت بقول الجماعة الفقرا الى رى
حالتنا عمرهم ما عيشوقوا ميتها ..

وقال المعلم رضوان فى ثقة العالم بالأمر :

- كذب ، عافيش حاجة اسمها غنى وفقير عند ربنا ، كله

يوم القيامة واحد . تقف فى طابور واحد قدام باين ، باب

أخضر وباب أحمر . الباب الأخضر ده الجنة ، والأحمر النار

والعياذ بالله . الى مكتوبه الجنة يخس م الباب الأخضر .

والى بعيد عنكم مكتوب عليه الفأز يخشى م الباب الأحمر .
 الى هيتخش م الباب الأخضر يصص يلاقى على طول الجنائين فى
 وشه . حناين مالهائش حدود ، ويلاقى السرايات على الجنين ،
 كل واحد يستلم سراية ، وحاكم سرايات الجنة مش كبيرة ،
 يدويك على أد الواحد . وعيه كل الحكاية دورين . أول دور
 من غير مؤاخذة للأكل بس ، وتانى دور للثوم . وهنالك نظام
 مغيث بعد كده . الواحد يصحى الساعة حداثر ، اتناشر .
 على مهله ، مغيث شغل هناك ، وساعة ما يصحى ينزل يغسل
 وشه ، ويلبس جلابة بفضة تصيفة ، ويقعد ع السفرة زى الناس
 الذوات . بيص يلاقى ع السفرة ده فى كل شى . قلبك يحبه من
 خيرات الله . قول زى الألباز مهروس فى الزبدة البقرى
 الحلوة ، وعسل وطحينة ، وجينه حلوم بغيرها ، واللبن الى
 لسه مخلوط من بز أمه ، والدقة الى معمولة بصنعة تضيعة ،
 والعيش الأبيض الى زى الفل ، وجرجير وفجل من خيرات
 ربنا الى فى الجنة . قول يأكل ده بده ، ويقوم يتمشى شوية
 فى الجنائين ، أو يقعد جنب الشباك المفتوح ع البحرى يجيب
 ترواة تزد الروح ، حاكم كل الشيايك الى فى الجنة
 ع البحرى . والجو دايمًا هناك خريف يود الروح ، ولا ترواة
 تلاقى ، ولا عقارة تلاقى ، حاجة نضافة مغيث بعد كده بقدره
 ربنا . . .

كان الجمع المحشود قد اصغى بكل ما فيه من حواس لحديث
 المعلم رضوان ، وأشرف الجميع على مفاعدهم يستمعون فى
 تشوية واعجاب وهم يلقون أسنتهم تارة ، ويهشون بين
 أفتخادهم تارة أخرى ويتنادون على الدوام . ولم يحاول أحدهم
 أن يقاطع المعلم رضوان ، فعاد الأخير يسرد القصة فى حماس
 هادى جميل .

— أنهم بعد كده ، الواحد يطلع تانى بنام . ماصو مغيث
 شغل هناك ، ولا قوم روح القرن ولا شوف العجين ولا كافة
 حاجة من دى ، كل واحد حر نفسه . فعلى طول الواحد يطلع
 بنام تانى لحد الساعة خمسة ، الساعة ستة ، على كيفه . وعند
 ما يصحى يلاقى السفرة متحضرة ، فراح عنقاقى محمرة ،
 كتاكيت مشوية ، أرانب باللوخية ، كبده على كلاوى . . .

حاجات م الى تجرى الدم فى عروق الواحد وتخلى عنيه تشجيل
 ولتق المعلم رضوان ريقه ، وكذلك فعل ريقه الموجودين . .
 وسأله واحد :

— مغيث شوية طرشى يا معلم ؟ . .

— ورد المعلم فى ثقة بالغة :

— دى مسألة مزاجات بقى ، عاوز طرشى يجبولك ، كافة
 شىء ترغبه نفسك يحضر على طول ، آمال عيه جنه ليه ؟ .

ثم عاد المعلم رضوان يسرد قصته الجميلة . . والأخرون
 يستمعون فى لذة فائقة :

— بعد الأكل بقى الواحد يغسل ايديه ، مغيث هناك حاجة
 اسمها تكسل تغسل ايديك ، التضافة واجبة هناك . وبعد
 كده يجيبك الحور العين ، ستات زى البقلاوة ، حاجة تفتح
 النفس ، مش زى الستات الى الواحد بيشوفهم فى السكك
 دول ، مايفركس الأحمر والأبيض ، دى مسائل بوليتيكا
 كلها ، إنما هناك حاجة طبيعى بتاعة ربنا ، وكل واحد يختار
 الى على كيفه ، حلاله . وعلى أد الواحد مايجرم نفسه من
 الدنيا دى ، على أد ما يمتع نفسه هناك ، والعين بالعين والسفن
 بالنسن . . .

— وحتف واحد من الجالسين :

— الله أكبر يا معلم . . أد كده . .

— ورد للمعلم على الفور :

— آمال ، ماصو يعنى إيه حكاية العين بالعين دى ، يعنى
 زى ما تعمل تلاقى . تمشى فى الدنيا وتلمب تشوشى فى نار
 جهنم ، تمشى عدل وتشوف أوامر ربنا ، تمتع زى ما يقولك
 دلوقت بالبطيط . . .

وسكت المعلم رضوان قليلا ، ربنا أزاح عمامته الى الخلف
 قليلا قبل أن يقول :

— المهم الساعة اتناشر باللبل يكون العشا جاهز فى الجنة
 تنزل تمتشى لقمة خفيفة ، شوية لبن ، حنة مرهبي ، حنةجينه ،
 شوية زتون ، لقمة عيش فينو . وتطلع تمتشى شوية فى
 الترواة ، وفى القمر الحلو . . حاكم القمر مايفتخيش أبنا فى
 الجنة . يتنه منور على طول . عاوز تشوف حد ، قود حد ،

عاوز تزور جماعة صحابك ، جماعة كده كده .. زى مانت
عاوز ..

وهرش واحد من الجالسين قبل أن يسأل المعلم وضوان
سؤال محيرا :

- لكن الجنة واسعة قوى يا معلم .. الواحد ميزور الناس
فيها ازاى ؟

- لا ماصو كل جماعة صحاب جنب بعض ، وع العموم ان
كنت عاوز تشوف حد فى الجنة بس تمنى فى نفسك .. وعلى
طول تشوفه .

- ازاى تى بقى ؟

وارتبك المعلم وضوان قليلا قبل أن يقول :

- الله !! أهو دا اللى حصل بقى . انت شريكه .

وسكت الرجل ، فقد أتخه منطق المعلم وضوان .. ودار
الهمس بين الجميع ، وتحركت ألسنتهم بتعليقات شتى :

- صحيح يا ناس ربنا قادر على كل شئ ..

- سبحانة .. هوه الغنى ..

- يعز من يشاء ، ويفل من يشاء ..

- ده ربك كبير ..

وعندما سكنت الأصوات ، وهم المعلم وضوان باستئناف
الحديث من جديد ، زعق الواد برهومة كالتغراب :

- يا معلم وضوان ، الساعة يقت اتناشر ..

وضرب المعلم يده فى جيب الصدريى فانتزع مساعته
الفضحة القديمة .. كانت الثانية عشرة تماما .. فأعادها إلى

جيبه من جديد ، وقام فانتحى برهومة جانبا وحاسبه على
المشاريب ، ثم حيا الجميع من بعيد ، وراح يحث الحظي على

بلاط الدخديرة حتى وصل إلى القرن . وعندما أصبح فى ثم
الباب أحس بوهج النار تكاد تلهب بجرارتها حتى الجدران ،

ونسى المعلم وضوان كل شئ ووثب نحو الداخل على عجل ،
وخلع جلبابه فعلقه فى رأس المسار ، ثم قفز إلى أسفل وفتح

باب القرن ، فأحس كأنه فتح بوابة جهنم ، وتصيب العرق
على جبهته بخرارة وهو يتناول أرغفة العيش ليقتف بها داخل

النار ، وفى رأسه تطوف كل الصور التى رسمها بنفسه
لجنة التى لا يد وأن يواها فى يوم من الأيام ..

أيام زمان ..



كانت الحجرة التي تدار فيها أنفاس المشيش ضيقة ، وبشعة للغاية ، وكانت جمرتها كالمة ألون تتخللها خطوط حمراء مستقيمة من أثر عملية اغتيال واسعة النطاق قام بها سكان الحجره على جيش البق الذي كانت فلوله تصرح على الجدران ، في ذلك المساء ونحن جلوس نستمتع الى أحدا يدتمن بأغنية معروفة ، ونشغظ بشدة أنفاس الجوزة المنعسة بالمشيش ! ولم يكن بيننا أحد غريب عن النشلة الا صاحب الحجره أو العرزة ، كما يطلق عليها أصحاب المزاج الترددون بالثبات من كل الطبقات والفئات !

وكان رجلاً قصيراً دميماً ، تأكلت دموع عينيه ، وأحمرت جفونه ، واختلط فيها السواد بالبياض .. وكانت لشدة ضيقهما ولقهما تيدوان وكأتهما عينا تعبان عجوز .. وكان دائم الترترة لا يكف عن الكلام ، كان المشيش مهمته والكلام هوايته ، وكان فناناً في الحديث ، وعبق قفزة طبيعية تحريك على السماء ، وتشدك اليه شدا ، وكانك منجذب اليه بتيار صاعق من الكهرباء ..

كان عم محمود يجلس صامتاً ومتحرف المزاج لعدم استطاعته الكلام ، لأن صوت أحدا كان يرتفع بالغناء .. وحاول عم محمود أن يقطع عليه استمراره في الغناء فلم يوفق !

وخظرت له في النهاية فكرة استطاع بها أن يوقف صاحبنا عن المضي في الغناء وأيضاً .. نجح في أن يجنب انتباغاه ويجبره على أن يستمع - معنا - إليه . وكانت الفكرة بسيطة ضرب عم محمود يده على فخذه ، ثم قال فجأة :

- الدور الى بتغنيه ده كلام فارغ .

وبهزنا الحكم الذي أصدره عم محمود على الدور الشائع المعروف ، الذي يتردد على شفاه كل الناس .. فهتفتنا في صوت واحد .. وكأننا على اتفاق :

- ليه ؟ ! ..

وصمت عم محمود قليلاً ريثما انتهى من الهرش أسفل ذقته ثم عطف على شفتيه .. وقال :

- كل أدوار .. الغناء الأيام دي فالصو الطرب .. كان زمان .

وهفت أحدا في صوت خفيض :

- يا سلام ..

ونهايات القرصة لعم محمود فتربع ، ومسح وجهه بذيل جلبابه وقال :

- أمال ، عود فيه طرب دلوقت ، الطرب كان أيام المظ ، على الحرام من بيتي ما سمعنا طرب بعد كده ..

- بقي طرب زمان كان أحسن ؟ ..

- أمال .. كل حاجة زمان كانت أحسن ..

- وسكت عم محمود قليلاً ، ثم أضاف :

- حتى الرجالة .. رجاله زمان كانت أجده ..

- أزاى بقي ؟ ..

- زى ما بقولك .. كان فيه خير ، كان رطل اللحمة

المشفي الأوزى التي بينقط سمن .. تشتربه بقرشين ..

كان الرجال من دول يأكل رطلين ، وزغيق عيش قمح ،

وشوية مسلطة طحينة وبطيخة بال عشرة صاع .. ويقوم يا بن

الباشا يلاطم الحديد ، يضرب ايده في السقف تموت ، يشرب

حشيش تضيف ، وينام في الجبل والقرافة ويضرب في

عشرين راجل ما يتعشى ..

- اتما يا عم محمود دا رطلين لحمه كثير ..

- كثير دلوقت .. عثمان مش لحمه بلدى ، لحم زفر يوجع

البطن .. الرجال يأكل نص رطل يفضل يعوى طول النهار

- وابه التي جاب الزقارة عند اللحمة ! ..

- الزمن المهيب ده - كل شيء بقي يطع شيطاني - عود

النره يطلع من بطن الأرض في شهر .. م الكماوى ..

وبواجير الحوت ، وبواجير الميه .. كل شيء بقي اصطناعي

دلوقت .. حتى الميه يطلمها الباجور ، حد شاف قبل كده

حاجة كده .. الميه .. الميه التي ماشية في الترة بتاعة ربنا

جاوبها بأجور كمان ، سبحان الله !

وتوقف عم محمود قليلاً ريثما شفق أنفاسا عميقة من الجوزة

ثم اكتب على وجهه زواج يكع بشدة ، ويصق بشكل مضحك

ثم اعتدل بعد أن انتهى من النوبة التي دهمته ، وسمع ضاربه
براحة يده .. وواصل حديثه على الفور ..

عشان كده مفيش جدعان دلوقت ، زمان كان فيه جدعان
تفرح القلب ، القيشاوى بتناح الحسنية ، وعتتر بتناح السبئية
والحاج عبد الرسول فى بولاق ، والقاضى فى الدرب الأحمر
كانت العالم كلها تعمل حسابهم .. حتى الحكومة ..

- وعيه الجذعنة انك تخوف الناس يا عم محمود ؟ ..

- الله .. أمال الجذعنة تبقى أيه طب دا الواد عتتر فى
قوبة راكمب الحصان بتاعه .. حاكم ماكانش فيه ترمای ..
ولا حاجات من دى .. وبعدين يا سيدى .. كنا بتحكى فى
أيه ؟ ..

- فى حكاية عتتر ..

- أيوه اللهم صل على النبى .. وكمان أيه ..

- وكمان لما كان راكمب الحصان بتاعه ..

- أيوه مضبوط كده يا بن الباشا .. تعرف الحصان من
غير مؤاخذه دخل بيه ع البواكى كسر ضلوعه ..
- ضلوع الحصان ؟

- لا من غير مؤاخذه .. ضلوع عتتر ، تعرف عمل أيه
يا بن الباشا ، نزل من فوق الحصان ، واندار ضرب فى الشارع
كله ما خلاش دكان قاتح ، ولا قهوة منورة ، ولا واحد ماشى
حتى عساكر البوليس طفتسوا من قدامه .. وهو حته كان
فيه بوليس أيامها ، دا كان الحكاية كلها عسكرى واحد فى كل
شارع ، ومن غير مؤاخذه عجوز زى حلاتى ، وهامسك حته
عصايا لا تودى ولا تحيب ..

- وهى الجذعنة يا عم محمود انك تضرب الناس ؟ ..

- الله أمال عيه أيه الجذعنة .. أمال زى دلوقت قبل ماتشبع
ضرب فى الواحد تلاقى ميت عسكرى اتلعوا حواليك ، وساعات
وحياة دينى قبل ما تضرب تلاقى بوليس النجفة واقف قدامك
- ما حى دى المدنية يا عم محمود ..

- مدينة أيه قول يا بأسط ، دى أمور قفر كلها .. دا
الواحد زمان كان يخش الحماره يطلب كاسين براندى ، ويقوم
ع البنك يغالط الحواجه يتبلى عليه يقوله أنا مديك جنيه ..

وحياتك عنها ويأخذ الباقى .. وكاس كمان .. دلوقت قبل
ما نكلمه تلاقى عربية النجفة طلعالك ، زى متكون طالعك من
نحت عتية الباب ..

- ما هو زمان كان مشغل بلطجة يا عم محمود ..

- بلطجة أيه يا عم قول يا كريم والنبى دا كل شى دلوقت
نوماتيكى .. تدوس كده تمشى العربية ، تدوس كده يعشى
الترماى تدوس كده يولع النور ، تدوس كده تفتح الراديو ،
تدوس كده تطلع الطائرة ، حاجات كثر كلها ، واقترأ على ربنا
وبنا خلقنا عشان نمشى ع الأرض ، طرنا احنا فى الجوا ، مش
ده كفر ، وراح يحاسبنا عليه يوم القيامة ..

- طب ما حى دى كلها حاجات بتاعه ربنا يا عم محمود ،
وتربح الناس كمان ..

- تربح مين يا بن الباشا ، دى حاجات جين كلها . الراجل

زمان كان ينام فى الجبل فى الضلعة ، ويتقف قدام الوجوش
كأنه وخش زيفهم ، إذا كان فيه فاس متوحشة عن الوجوش ..

يا سلام دا كان فيه عيال ماولدتهموش ولادة ، كان الواد
من دول طول وعرض ، وقفاه يطلع متر ، ولو ضرب واحد قلم
بيوته ، وكان يمشى يقول يا أرض ما عليكى الا أنا ، ويدخل
السجن يلبس الحديد ، ويمشى يشخلل بيه زى البنت البكر
الليهم صلى على جمال النبى ، كانت حاجات نزاها ومزاج صحیح
مش دلوقت الواحد كله وزنه يطلع ستين كيلو ، وان مشى
مشوار صغير يكح ويعدم ، زمان كان فيه جدعان صحیح ..

- ما هو الجذعنة مش بالطول والعرض يا عم محمود ..
الجذعنة دلوقت بالشغل بالمكسب بالعلم بالوظيفة بالنجاح ..
- كله كذب .. مش صحیح ..

- طب بلمتك يا عم محمود ، الطابض أجدع .. والا
الفتوة ؟

وصمت عم محمود طويلا .. وهرش فى قفاه ، وأفى صدره
ثم قال :

- بالصراحة يا بن الباشا .. الطابض أحسن ..

- طبيب والمهندس جرح .. ولا الفاعل الى يشيل الطوب
طول النهار على كتفه ..

- برضه المهندس من غير مؤاخذه ..

- طبيب ماهو ده الى احنا بتقوله .. شوف الفاعل اد ايه ،
والمهندس اد ايه ..

وسكت عم محمود على غير عادته طويلا ، كان دائم العبث
بشماربه وعقله مستغرق في تفكير عميق ، وبدا وجهه تحت ضوء
اللمبة المرتعشة .. صفيرا مفضنا ، عضاه بارزة ، وجننه
مترهل ، ومعاله بارزة أكثر من الشيء المألوف ، ثم خرج عن
صمته فجأة .. وقال وكأنما يخاطب نفسه :

- صحيح المهندس أحسن ، غريبة .. اد القصة انما
مخ .. المنح دا يفتي الجديعة ، شوف الى اخترع التليفون ده
والا الترمائى ، والا الراديو ، أهو ده حديد بيتكلم .. وأنى
قال الدنيا تنتهي لما يتكلم المولود ، ويتكلم المديد ، تطلم
الشمس م المغرب ، أهو المولود اتكلم كانوا كاتبين كده في
الجرنان ، أهو الحديد اتكلم ، مافلسي عبر حديد الشمس

دى بقى ، وعلى فكرة الزمن الى احنا فيه ده ، آخر زمن ..
ماقيش عالم حيه بعد كده بقى .. لاني دى آخر دنيا ،

الواد كده نسبه مظلمش م البيضاء ، يشرب سجائر ، وتكلمه
يهب فيك ، الفلاحين الغلابا عرفوا السينيما ، والراديو ..
وبيلبسوا جلابيب بيضه دلوقت ، وعلى الطلاق من بيتي انا
أبويا عاش ومات عمره ما قلع الحليبه الزرقا .. وعيه جليبه
واحدة اللي شفتها عليه من نهار ما شفته دلوقت الفلاح يتق
ويليس ، يمكن في السنة جليبتين تقول خواجه .. والواد
ابنك تدليه عشرة صاع في ايدھ بصرفها في ساعة وعاوز تاني
زمان كنا نأخذ التعريفة ، وساعات مانا لقباش .. آخر زمن
زى مايقولك ..

ما هي الدنيا بتتقدم يا عم محمود ..

- خليها بتتقدم يا بنى ، البركة فيكم انتمو يا بن الباشا ،
احنا راحت علينا بقى البركة في الناس الاكسرا الى طالعه
جديد ..

- لا' ولسه يا عم محمود ، ذا الناس الى طالعه بعد كده
كمان أحسن ..

- يا سلام .. يعنى اكسرا الاكسرا ..

كانت الجلسة قد انقضت ، فنعضنا جميعا ، وسلمنا على
محمود .. وخرجنا يتبع بعضنا بعضا ، وعم محمود يتبعنا
في المؤخرة وعندما أصبحنا في الشارع والتفتنا حول العربة
الفاخرة التي كانت تنتظرنا عند الباب ، وقف عم محمود
ينظر اليها طويلا ، ثم واح يدور حولها في شغف ، ويده
تمسح على هيكلها بعنان ، وكأنها انسان يلاطفه ثم وقف
فجأة .. يقول وهو يهتز من الضحك ..

أهي دى الحاجات الحفافي ، على الحرام واحدة من دى للعبد
للله ، وأنا سيب الدنيا كلها وأنام فيها .. حاجه ترد الروح
صحيح ..

يا سلام لو واحدة زى دى ، وعمارة وقمرين حلوتين ، ولا
الواحد يشيل عم بكره ، وأكل بكره ، وبعد بكره .. على
رأى لم كلثوم ..

وكنا قد دخلنا جميعا في السيارة ، وتأعينا للانطلاق ..
ورفع عم محمود يده في حب ، وقال وهو يودعنا بابتسامة
هادئة ..

مع السلامة يا عالم يا اكسرا ، البركة فيكم ، وفي العالم
الى طالعه زى الورد ..

عالم اكسرا الاكسرا ، زى التفاح الامريكاني بتاع زمان ا
وهتفنا جميعا وفي نفس واحد :

- تاني !!

وانطلقت العربة تسابق الريح ..

كثيرة من هذا النوع وقعت في الماضي البعيد عندما كان هو
شابه في ربيع العيون والناس الذين يستمعون بمصموم
شعاعهم عجا وامتجسانا وبعضهم يعلق على ما يسميه بكلمات
قصيرة ..

- صحيح أحر شخ في الدنيا يا جدعان !
- ايوه .. الناس بتوع زمان كانوا طيبين ..
- يا سلام على جيل الأيام دي ، عاوز الحرق ..
- ده ربنا كبير ..
- الله أكبر ..

ومرزوق الجزار يسرد حكاياته دون أن يلقي انتباهها الى
تعليقات الناس ، وكلما انتهى من سرد حادثة قفز الى الحادثة
الأخرى في سرد شائق وأسلوب يبرز به أسفه على ما آلت اليه
الحال ..

- طيب عارفين أيام سعد باشا ، وأنا كنت زى الواد
ابراهيم ، وسمعت أن مركب غرق في الرياح ..
- ويقطع عليه الحديث صوت يأتي من خلفه :
- يا سلام ، ده الخبر كان كبير يا جدعان ..
- ويجيب رجل آخر :

- وحترق ازاي .. ده فيه ناس عفاريت زوق دلوقت
واحدين بالهم عن المراكب ..

- يا راجل عفاريت مين ويتاخ مين ، ده من ظلم الناس ..
- أي والله صدقت ، العالم مايقاش يستناحل ، وبغيه
العفاريت الزرق راح تعمل ايه ؟ ده كله بأمر ربنا ، عاوزها
تترق .. تفرق ، لكن ده كفر من بني آدم ..
- ويستأنف مرزوق الجزار حديثه ، بوقار أكثر هذه المرة ،
مضيفا على الحديث شيئا من الأهمية :

- الشاهد يا جماعة ، المركب غرقت من هنا ، والبلد طُبت
في الرياح وعلى قد سمعي وأنا كنت عيبل في الأيام دي ..

المرحوم جدى معوض غطس في الرياح وكان طلع برميل اللهم
عبل على سيدنا النبي حاجة تفرح ! .. أكل ايه ، وشرب ايه
وحاجات كثير من خوات ربنا ! ..

والناس الذين كانوا يعتقدون أن مرزوق الجزار كاذب في

لم يعد في قرية الهلالية أحد
من سكانها داخل منزله لقد
هجروها الجميع في ذلك الصباح
الشمس الجميل الى جسر الرياح
المنوفى ، وعيونهم متعلقة بالماء
الذي راح يجرى متدفقا نحو
قناطر شبين ، فقد مرت منذ
الصباح الباكر في اتجاه القرية
اشاعة عزت وجدان الناس
بالأمل ورطبت نفوسهم بالبهجة
منذ أن حسم عبد البارى الخنيزر
في أذن الشيخ بلال واعظ جامع
الهلالية بأن « مركبا » ضخما
قد غرق في الرياح ليلة أمس ،
وكانت السعيقة في طريقها الى
مصر تحمل برميل كثيرة من
الجينة والزيتون والحوة الطحينية



وأكسيد البارى الخنيزر أن شلبى الصياد قد عثر على برميل يتهدى
على الماء مع التيار فباعه للخواجة « بنى » بخمسين قرشا ،
وكان هذا هو السبب الذي دفع الناس نحو الجسر ينظرون
بعيون قلقة أرقيا السهر وطول الانتظار عند الماء تترقب
البراميل التى تسبح مع التيار والتي يستطيع المرء أن يبيعها
للخواجة بنى بخمسين قرشا ، ولكن الساعات مرت ببطئ
متناقلة على الجموع المنتظرة على الجسر ترقب فى صبر نافذ
بشائر الكنز الذى يدفعه التيار نحو القناطر دون أن يلوح فى
الاتق أى أمل فى ظهور شيء من الكنز المفقود ، وبالرغم من
هذه الساعات المملة الطويلة ، فقد خلع كثيرون من شبين
القرية ملابسهم استعدادا للمعركة التى مستود حول البراميل
العائية ، ونام البعض الآخر ، والتف الباقون فى دائرة واسعة
حول « مرزوق » الجزار يستمعون اليه وهو يروى لهم حوادث

الحبيبات تسمرت عيونهن على لظيمة وهي تقبل نحو الجمع
 الحاشد وابتهامتها ترف على قميا الجميل ، وعندما اقتربت
 منهم حيث القوم ثم جلست الى جوار مرزق الجزائر تسأل عن
 أخبار الكنز الذي غرق في قاع الرياح .. كانت تجلس وقد
 شمرت عن ساقها المثلثتين الطويلتين النظفتين على غير
 العهد بسبقان الفلاحات التي تشبه أعواد الحطب الجافة ..
 وتسمرت عيون الشبان على الحسن الصارخ الجسم ، وكل منهم
 يمتص في أعناق نفسه أن يصبح زوجا لها ولو في الحلم ..
 ومسح « شنتى » صدره وهو يتقلب على الأرض ثم صفت
 فجاءه وكأنه يحدث نفسه :

— لو عشر براميل .. والواحد يبيعهم ويجوز لظيمة !
 ونظر اليه بلال نظرة استنكار قيل أن يرد عليه بسخرية
 لاذعة :

— بقي أنت يا أفرغ كمان ، والنبي لو ميت برميل ..
 هي لظيمة عاوژه واد حدح زى محسوك ..
 — وانت لاقى تاكل ..
 — ما هو المصيبة ..

وكان مثل هذا الحديث يتردد بين كل الشبان الجالسين على
 الجسر في ذلك الوقت في انتظار البراميل العائقة كان كل منهم
 يمتص لوز يتزوج لظيمة .. وكان كل منهم يبتلع حسرتة مع
 ريقه فهو يعلم تماما انه لا يملك شيئا .. وانه لا يستطيع
 أن يتزوج لظيمة ، وقد سبق لكثيرين أن تقدموا خطبتها ..
 ولكنها رفضتهم جميعا ، فلم يكتروا أكفاه لها ، وسرت اشاعة
 قوية في القرية تقول ان لظيمة تمسق واحدة من أفندية البندر
 قبل أن يموت أبوها ، وهي تعرف مصر شبرا شبرا ، وتتكلم
 بلغة أهلها ، ولها مثل عاداتهم وهي دائما تعلن في كل مناسبة
 أنها لا تطيق رائحة فلاح من الدين يطعمون في الزواج بها .
 وعندما ضحكت لظيمة ضحكتها المشهورة ، صاح أكثر من
 رجل وهم يحركون رقابهم في الهواء صيحة واحدة :

— يا وعدي ..
 وقناة قالت لظيمة :

حديثه كانوا يجلسون بعيدا تحت أشجار الصفصاف العالية
 على جسر الرياح يعادون الحديث في أمر البرميل الذي عثر
 عليه أحدهم ليئه أمس ، وكان بعضهم يؤكد أن الذي عثر عليه
 هو شلبي الصياد فقد كان وحده في الرياح في تلك الساعة
 المتأخرة من الليل ، وأنه عثر عليه مصادفة وبلا أدنى عناء .
 وكان بعضهم يكتب هذا أيضا فلم ير أحد منهم هذا البرميل
 والخوابيا يتنى نفسه يكتب هذا الزعم ، ولكن من يدرى فقد
 يكون الخوابيا يتنى يخاف أن يطالبه أحد بالبرميل بعد ذلك
 فلماذا لا ينكر الحكاية من أساسها ..

كان الناس الذين يجلسون على حوف الرياح ، والآخرون
 الذين في الماء عرايا في انتظار طلائع الكنز قد سمعوا الانتظار
 ولكن أحدا منهم لم يشأ أن يقصر حتى لا يفوز غيره بالظيمة
 كليا ويؤوه هو بأحمران المين .. ولكن عندما انتصف النهار
 وتوسعت الشمس الاثوق راح بعض الناس يتسللون لغشاء
 أعمالهم قيل ظهور البراميل .. بل انهم لم يتصرفوا الا بعد أن
 أكد لهم الرئيس سليمان المشرف على القساطر أن البراميل
 لا يمكن أن تطفو مع التيار قبل حلول المساء ، وكان مزوق
 الجزائر قد استبد به التعب والجوع فسكت عن رواية أفاضه
 والذين كانوا حوله اضطجعوا على جنوبهم فوق الأرض ..
 وعيونهم متعلقة بالتيار الذي كان يتدفق هادئا عميقا نحو
 قنابر شيبين وليس على صفحته أثر لطام مركب الامس ..
 وساد الهدوء جسر الرياح في هذه الساعة ، وتمت بعضهم وهو
 نائم بصوت خفيض :

— والله دى قلة عقل يا رجالة !! ..

— موت يا حمار على ما يجييك العليق ..

وكان من الممكن وقد استبد اليأس بالناس أن تستمر هذه
 التعليقات إلى مالا نهاية ، لولا أن ظهرت « لظيمة » عند الجسر
 تخطى في فستانها الاسود اللامع ، وشفتاها تتركان وتطلقان
 طرقات مسموعة ولسانها يلوك في جوانب حلقها قطعة من
 اللبان الضخمة وجسدها كله يهتز ويترجج اثناء سيرها ،
 وهب الناثمون جميعا فاستوتوا جالسين وهم يحذقون النظر
 في جسد لظيمة البض الناعم .. حتى النساء العميمات ..

والنبي كل راجل منكم يلاقي برميل لازم يشتري لو قزازة عطر ، ومرود كحل ..
وهنت مرزوق الجزار على القور :
- قزازة واحدة ؟ ده يبقى مغفل اى ما يشتري قزازتين .
وضحك لطيفة وضحك الجميع ، ثم عاد الهدوء يسود المكان من جديد ، وسكت الرجال تماما وقد تعلقت ابصارهم بالتيار وراح كل منهم يحلم بالبراميل وقد جاءت طاقية مع التيار ، واذا هو يتقدم مطلقا فداعيه القويتين تضربان في الماء تستوي على الكنز ، ثم ياتي بزجاجة العطر ويقدمها الى لطيفة ويجلس اليها وحده ، وهي تمد يدها لتسأخذ الهدية .. ثم تطلق ضحكها الزنانة ، وينتبهز هذه الفرصة المواتية فيعرض عليها الزواج .. وآه لو رصيت لطيفة ..
آه لو رصيت لطيفة ..

هكذا كانت الأفكار تدور في رأس كل من الحاضرين حتى قطع عليها سبيل الاسترسال صيحة أطلقها أحدهم :
- براميل يا جدهان .
ثم أعقب الصرخة انفداع عشرات من الأذرع القوية تضرب بشدة في مياه الرياح لتصل مسرعة الى الكنز العائم على صفحة الماء .. ولم تحض لحظات حتى كان الجميع في الرياح بعيدا عن الشاطئ ، وعلى بعد يسير منهم كومة هائلة لا يدري أحد عنها شيئا ، يدفعها التيار حيثما نحو القناطر ، وكان أمروح الجميع (بلال) ، فقد صاح بصوت مرتفع عندما وضع يده على الجبل العائم :

- اوع ايديك .. ماقيش جنس راجل يقول هات حاجه ..
ولكن بالرغم من صرخة بلال القوية وتهديده السافر فقد انقض الجميع على الكنز ، ثم ما لبثوا أن غاصوا جميعا تحت الماء .. ثم طفوا على السطح من جديد والحسرة تملأ قلوبهم جميعا .. فقد كان الشيء العائم مجرد كميات هائلة من القش حملها التيار معه ..
وعامت الأذرع القوية تضرب الماء متراخية في طويقها نحو

الشاطئ .. وعندما أصبح الجميع خارج الماء صاح مرزوق الجزار في نقة الحبير العالم ..
- يا ناس قلنا آمنوا بالله .. الحاجات دي كانت زمان ايام الناس الطيبين ، تعرفوا حتى ولو غرقت الحاجة الايام دي تحفظها العفاريث الزرق ولا ينتعش بيها بنى آدم ..
ويبدأ كلام مرزوق في هذه المرة لكثيرين من الذين عبروا الرياح حقا لا يقبل الشك ، ورتف بعضهم يرتعد من البرد ، وهو يؤمن على قول مرزوق :
- تعرف يا ع مرزوق .. وحياتة سيدى حمزة أنا نزلت اليه وأنا عارف افهم شوية قش ..
ويقهقه بلال وهو يقول :
- يا شيخ غور من هنا ، انت كنت حتعرق
وصاحت لطيفة :

- والنبي يا عمال دي باين الحكاية كذب في كذب ..
وعاد مرزوق يقص ذكرياته السعيدة من أيام زمان وخيرات زمان التي اختفت باختفاء الناس الطيبين ..
ومضى وقت طويل قيل أن تميل الشمس نحو الغيب ..
وهبت ربح باردة من الشمال ، وثار الغبار في عيون الجميع وهب مرزوق الجزار واقفا وقد أعلن يأسه من ظهور البراميل وقامت من خلفه لطيفة وهي تنفض التراب عن قدميها الجميلتين وسار الاثنان على الجسر في طرفيهما الى القرية وقام من خلفهما كثيرون يتبعونهما على الطريق ذاته .. ولم يلبث الجسر أن خلا من الناس ، ولم يبق هناك سوى بلال وشندى .. فقد أصرا على انتظار البراميل حتى الصباح ..
وعندما صارت الظلمة حالكة ، والريح شديدة البرودة ، ولا حركة ولا حياة ولا صوت سوى نباح الكلاب الجائعة ..
ودعوا الذئاب التساردة في الحقول البعيدة وتقيق الضفادع ينبعث من بعيد ومن قريب اقترح شندى على زميله أن يتصرفا فبدى كأن الجو ينذر بعاصفة شديدة ومطر غزير ، وقبل أن يبدي بلال رأيه في الاقتراح صاح شلبى الصياد الذى قارت الاشاعات حوله بأنه السعيد الذى عثر على البرميل وباعه للخواجه بنى :

- من أين الي قاعدین علی الجسر دون ؟
وأجابه الصوت :

- أنا بلال یا شلبی ..

- وقاعد تعمل ایه یا راجل ؟

- مستنى البراهیل ..

هی انطلقت عليك الحسابة انت راخر ؟ .. بقى النواد
عبد الباری الغفیر مش راح يبطل الكلام الفارغ بتاعه ده ..
وتسائل بلال وانغیظ یکاد ينهش قلبه :
- لیه صوه انت مالقیتش برهیل امبارح ؟
وأجابه شلبی مستکرا :

- برهیل ایه یا راجل ؟ .. انت بتصدق الكلام ده ؟ ..
هو ولد زى عبد الباری يطلمکم علی الجسر زى أفكار الترحیل
أما دى نکتة یا رجالة !! ..

واستدار شلبی الی الناحية الأخرى والشبكة بین یدیه ،
ثم لم یلبث أن طرحها فی النهر ..

ونھض بلال متناقلا ومن خلفه شندی وقد أطرق کل منهما
مهوما نحر الأرض ، وعندما أمسیا فی مواجهة القناطر
استدار یظران ناحية للرياح .. كان التيار يتدفق سريعا
عميقا یاردا ولا شيء هناك تطفو علی السطح .. والسكون
المطبق علی الكون یمزقه أحيانا تياح الكلاب الجائعة ، وعواء
الذئاب الشاردة فی الحقول البعيدة ، ولم یلبث الرجلان أن
استدارا من جديد الی الناحية الأخرى وهما یسرعان الحظی
نحر القرية ..

• الدورية •

مضت ساعات طويلة وغفقی
عسكري البولیس یقف مكانه لم
یتحرك منذ أول اللیل تحت
عامود النور عند أول الكوبری
یتأمل ما حوله فی هدوء بالغ
وتفكير عمیق .. ومنذ أكثر من
عشرين یوما وهو یقف فی نفس
المكان اللیل بطوله یتأمل ویفكر
ویضرب فی مخالیق الله ، ثم
یقلبه العنصر عند الفجر ..



فیستسلم له حتى یحین موعد انتهاء الدورية فیذهب الی حیث
یرید ..

وهو فی هذه الساعة أيضا یفكر فی نفس الشيء الذى فكر
فیہ بالأمس وأول أمس والأیام التى مضت کلها .. یفكر فی
هذا النهر الطویل العریض الذى لا يعرف أحد من أين یأتى
والی أين ینصب ، وفی المخلوقات الرحيبة المخيفة التى تسكن
أسفل قاعة تآكل وتشرب وتعبد الله وأحيانا تطفو علی سطح
النهر فتخطف واحدا من البشر تقتله أو تبقيه حیا تحت
سطح الماء .. وارتعد بدن غفقی وهو یقلو فی سره « آية
الكرسى » ثم عاد یستغرق فی تفكيره ولكنه لم یتعد كثيرا
فقد زعمته من أفكاره ضحكة تساقية ناعمة جميلة أطلققتها
امرأة جميلة مرت بها عربة سريعة مثل الريح ، وهذا المنظر
یراه غفقی كثيرا بعد أن وقف هنا عند أول الكوبری منذ
عشرين یوما ، هو منظر یغلی له دمه وتبرز عروقه ، ویجعله

يصدق على القانون كل لحظة لأنه لا يخول له حتى القبض على العربات ومن فيها ..

وفكر عفيفي قليلا : لو أن الأمر كله في يده ؟ اذن لشنق كل امرأة تضحك في عربة تمر بها كالريح في الليل ..

ولكن ليس الأمر كله في يده ولكن بعض الأمر فقط ، فهو يستطيع أن يقبض على المارة وأن يجرم منهم من يشاء الى القسم هو أيضا له سلطة ولكنها ناقصة ..

ومرت عربة أخرى فارعة كلحمة العين أمام عفيفي ، ولم تصدر عنها ضحكة ، ولكن في داخلها كان يجري ما هو أدهى وأمر ..

أفتدى يسوق العربة وامرأة ملتصقة به ، فلا يدري أحد أمي التي تسوق أم الافندي ، واستغفر الله لهذا الفسق ، وتذكر قرينه كمر غنام ، وكيف أن الحياة تمشي فيها على الشرف والفضيلة ..

في كمر غنام لا توجد مسخرة ولا توجد بهرجة ، الناس هناك أشرف ينأمون في المغرب ويستيقظون مع الصباح ، ويضربون الأرض بالفأس ، ويضعون الدم ..

ولا يجفون ما يأكلون ، ولكن هنا في المدينة ينسى الناس زهم ، وينسون الآخرة ، لذلك ينزل الله المقت والفقر بالناس ويتكلم بهم لهذا الذي يجري : امرأة تضحك وامرأة تلتصق بالافندي ..

يا داهية سودة ..

لقد مرت عربة أخرى أثارت عيارا أمام عيني عفيفي ، ولكنه استطاع رغم ذلك أن يلعب ما بداخلها .. امرأة جميلة ، وفي هذه المرة تجلس على ركبتى الافندي ، ولنع عفيفي البندقية على كتفيه وضرب كفا بكف واستغفر الله على هذا الذنب العظيم ، صحيح ان الضلال عم الدنيا كلها ، وعمما قريب ..

سيستخط الله الناس قرودا أو وحوشا أو ربما خناقس ..

وصراخه وتمتم عفيفي بكلمات يطلب من الله أن يعجل بانتهاه عمره قبل أن يحل غضبه على الناس فينجو من هذا البلاء العظيم ، والله يرحمه جنه عبد السلام كان يردد هذه الامنية كثيرا ، وكان يتنبأ للعالم بالخراب لأن الفساد قد انتشر فيه ..

وزاح عفيفي يعد الشهور الباقية له في خلعمة بوليس

بلوكات النظام ، لم يبق له سوى أربعة شهور سيقتبض مكافأته في نهايتها ويسرع بالعودة الى كمر غنام فيتزوج من هبة بنت عمه ويعيش هناك يصلى ويصوم حتى يحين أجله الموعود ..

ولكن المكافأة لا يمكن أن تسكني للزواج والاقامة .. وهو لا يملك شيئا في كمر غنام سوى ثار قديمة لابد أن حيطانها قد تهدمت الآن ، ولكنه يستطيع العمل في مصر ، فهو يعرف كل شيء فيها ، وله معارف كثيرون ، منهم حسن أفتدى الضابط وهو رجل طيب ويستطيع أن يلحقه بأى عمل شريف ، ولكن

لا .. انه لن يبقى في مصر يوما واحدا انها بلد المسافر ..

وأسعفت الاقدار عفيفي بالدليل فقد مرت عربة جميلة تتهاذى بالركب الشرابي في النيل وفي داخلها تجري مناظر ..

يا جوه .. ان عفيفي لا يستطيع أن يرددها حتى بيته وبين نفسه ..

هؤلاء الناس مصريون ولكنهم أشبه بالهواجيات .. فهم لا يأكلون الا بالشوكة والسكينة .. تصور !! نسي الناس السنة فلم يعودوا يأكلون بأصابعهم ، ولا يصلون ولا يصومون

ويستحجون مع النساء عرافة في البحر ويرتكيون المسافر في العربات ، ويرطنون بلغة أجنبية .. حتى العربي نسيوه ..

لهذا السبب وحده تعد الأمراض والأزمات ويفرى الجوع بطون الناس ، وهو نفسه يحس أثر الأزمة ، وكذلك يحسها كل اقاربه في كمر غنام ..

ولكن !! ..

لماذا هو الثلبان الشقيان واقاربه المساكين يعانون الازمة ، ولا يحس هؤلاء الفجرة بشيء ..

حكمة الهية !! ..

الله سبحانه يعذب الفقراء في الحياة الدنيا تكفيرا عن اخطاء الاغنياء ، ويعذب الاغنياء في الآخرة تكفيرا عن ذنوب الفقراء والحمد لله الذي كتب عليه أن يكون من أهل الآخرة ، فهي طوبى خالدة لا نهاية لها على الاطلاق ..

ولكن الشيطان أخزاه الله لابد أن يوسوس !! .. وماذا يا عفيفي لو هبط عليك الحظ بعربة وامرأة ونقود

كثيرة في البنوك ؟ ..

وأرعى الشيطان اللعين بدن عفيفي وأرعى كذلك عقله ..
نعم صحيح ، ماذا لو عبط الحظ عليك وأصبحت واحدا من
هؤلاء الناس ؟ ..

طبعاً أرفضها ، لا أركبها .. انها رجس من عمل الشيطان
ايه .. صحيح يا عبد الموجود ؟ ..

وترف ابتسامه بإعته على شفتي عبد الموجود وهو سارح
مع أفكاره الى عالم بعيد ..

طيب لن أركبها ، سأجرب يومين حياة هؤلاء الناس ..
ثم أتركها وأعود كما كنت ..

أو .. أفضل على طول مع هؤلاء الناس لاجل أن لنع
ما يدور بينهم من مهازل تفضي النساء ..

يالها من فكرة رائعة يا عفيفي وتزعه من جديد ضحكة
عالية ، ولكنها في هذه المرة صادرة من الرصيف المقابل ..

ومصدرها شاب لا يد أنه عابت يسير الى جوار شاب آخر في
مثل سنه ..

وافتأظ عفيفي جدا لأنه اتزع من حلمه الجميل .. وهذا
الذي حدث مخافة لأنه شغب من شأنه ايقاظ الناس النائمين

ولكن ليس صا على الكوبري أحد ينام ..
المهم انه شغب والسلام .. ويخطو عفيفي بخطوات سريعة

ويده في حزام البنديقية ، ويده الأخرى على شاربه ..
خد يا فتى ، رابع فين ، وجاي مزين ، وبنتشغل ايه ..

وخناقة للجو ، وزعيق ، وشغب صحيح ، ثم ايمانان غليظة ،
وجرجرة على القسم ، وظل عفيفي ملفوفاً أكثر من ساعة في

القسم ثم أمره أن يضي الى عمله وتركه لاقتدبة يتضون امام عينيه
محصية كبرى ان القانون لم يعد له وجود ، لو أن هناك

عدداً حقيقياً لسجن هؤلاء الاقتدبة لهذا العيب المفضوح ..
ومضى عفيفي بخطوات متساقطة على الطريق نحو كوبري

الجلاد ، ويده في حزام البنديقية ، ويده الأخرى تجاه فمه تفرض
أسنانه من أصابعها أطراف حادة طويلة ، وعقله يحسب الشهور

والأيام الباقية له في خدمة بلوكات النظام ، وراح يستعرض
في ذهنه معالم كفر غنام .. ساقية عبد الهادي الهيجورة ..

وطاحونة سوارس أفتدى ، وجنينة حسن أفتدى ، والحلة
الوسعية ، وترعة الشرق ، والصلية التي على حرقها ، ونفخ

عفيفي بشدة من الضجر ، وبدت له ألوان الشارع باهتة ..
وججارته كالشوك ، والعربات التي تمر عليها شياطين متحركة

وعندما وصل الى الكوبري ، كان الفجر على وشك أن
يسبق والهواء أصبح رطباً ، وسرى الخمول الى بدنه ، وتعتنى

لو ينام ، ولكنه ما قاد يخطو أول خطوة داخل الكوبري حتى
سمع صرخة كأنه الاتين .. فأسرع بخطواته نحوه .. كان

هناك حمار مكدود قائماً على الأرض يحاول صاحبه المرهق
عشان يخلص من وقته عريش العربة الكارو المحملة بالطوب

كأن الرجل يحاول بشدة ويبأس معاً .. انهض الحمار الذي
سقط في الطريق ..

وعندما شعر الرجل بالعسكري عفيفي ، ناداه على الفور ،
وطلب منه ببساطة أن يعاونه ، واشتمار عفيفي اول الأمر ،

ولكن لهجة الرجل كانت فيها ريقية بسيطة متمسخة ممزقة
انه واحد من الناس وعلامه طيبة ، وعلايسه زرقاء يشبه

كثيرا الناس الذين في كفر غنام ، والناس الذين في القرى
التي حولها ، وتحرك عفيفي على الفور ، أسند البنديقية الى

عمود النور ، وانحنى على العريش المعلق في روية الحمار ..
وثنى ركبتيه وهتف الاثنان معاً في صوت منغم رتيب :

صلى على النبي ..

ونهض الحمار ، وانهض عفيفي فنفض كفه وبنظونه ..
والنقط بندقيته ، واتجه بخطوات ثابتة الى مكانه تحت العمود

وقبل أن يقف زياراً نظر الى ساعته الجيب الضخمة ليري كم
من الوقت بقي على انتهاء داوريته ؟ ..

أبو ذراع ..



مد عبد الرحيم أبو ذراع أذنه من نافذة القطار السريع الذي راح منذ ثلاث ساعات مضت يخطف القرى والمدن والحقول خطاً منذ أن قام من بنها والحقول إلى الاسكندرية ..

وكان السبب الذي من أجله مد عبد الرحيم أبو ذراع أذنه من النافذة هو نسمة هواء لطيفة حبت فجأة فلطقت جو القطار التي كان يعيق برائحة العرق والبول والدخان التي كان يتسرب من دورة مياه العربات الأخيرة ، ويجرى في قنوات رقيقة طويلة تحت أقدام الركاب ..

وتنشق أبو ذراع الهواء في حركات سريعة ، وقد مد أذنه بقدر ما يستطيع ثم أغمض عينيه من اللذة ، وتمنى لو كان له بيت في هذا الحلاء الفسيح فيتمدد على حصيرة أمام الباب ، ووسادة من تحت رأسه ونسمة هواء لطيفة مثل هذه تهب عليه فتجعله ينام ..

وقطعت أحلام أبو ذراع ضجة عاقلة قامت من حوله .. فقد تأعب الركاب للزول في محطة الاسكندرية ، وأسرع كل منهم نحو الباب ليحصل شنطة وأمتعته ..

ووقف هو في نهاية الصف الطويل بلا شئ ولا أمتعة .. يشمطي في خمول ، ويتنأب في ملل .. وعندما وقف انظار نزل معهم وسار بينهم حتى وجد نفسه خارج المحطة في الميدان الواسع الكبير لا يعرف في أي اتجاه يجب أن يسير ، فهذه هي المرة الأولى له في الاسكندرية ، ولولا المسألة المهمة التي جاء من أجلها لما فكر في السفر إلى هنا ، فهو أولاً لا يحب السفر ، ورأيه فيه أنه تفقت بلا مبرر ، فالمدن والناس يتشابهون في كل مكان وأيضاً لأنه لا يجد الوقت الكافي ولا يجد نقوداً ، ومحرض أبو ذراع في قفاه وهو ينتظر حوله مندعشاً لما يراه .. فإمامه ميدان وأرصفه وناس كثيرين لا يختلفون عن الناس في مصر لا في بنها .. والمباني واحدة ليس فيها شيء عجيب ولا غريب .. ومع ذلك فما أضخم الشهرة التي تتمتع بها الاسكندرية ، وأصعب ولا الضنى كما يقولون .. وتذكر أبو ذراع في تلك اللحظة الصور العديدة التي مرت في ذهنه عندما كان يسمع اسم الاسكندرية ، وكان يظن في تلك الأيام أن شوارعها من البللور ، ومبانيها من الجليدية ، وناسها حرس الوجوه كالانجليز ..

وسرعان ما طرد أبو ذراع هذه الحواطر عن ذهنه ، واتجه ناحية عسكري المرور يسأله عن شاطئه كليباطرة حيث يعمل ابن عمه حارساً للشاطئ، هناك ..

كان الميدان من دحماً والعربات تجرى على الطريق تحمّل رجالاً ونساء أنصاف عرايا ، وأحياناً عرايا الأ من لباس منون صغير ، وكان العسكري مشغولاً فأشار بحركة خاطفة إلى الطريق التي يجب أن يسلكه ، وبسرعة وبدون أن يفهم أبو ذراع شيئاً شكر العسكري ، وانحرف ناحية الطريق الذي أشار إليه العسكري وراح يحث الحظي مسرعاً وهو مستغرق تماماً عن كل ما حوله في المسألة المهمة التي جاء من أجلها إلى الاسكندرية ، وأيضاً في المصاريف التي تكبدها والتي سيتكدها حتى يعود من جديد إلى بنها ..

وتمنى لو استطاع أن يحل المسألة بسهولة من ابن عمه ، فهو يعلم أنه شيم وأنه جدع ، ومسألته لا تحتاج إلى تفكير طويل ، فهو يرغب في الزواج من بنت عمه ، فهي صغيرة ..

وجميلة .. ومن دمه .. وهى تحبه وهو يحبها .. ولكن العقبة الوحيدة التى تعترض طريق مسعاده هي أنه يملك عشرين جنيتها فقط وايضا تصر على ثلاثين ولو كان أبو ذراع يملك ثلاثين أو خمسين أو حتى مائة لدفعها كلها ولكن ماذا يفعل وهو لا يملك الا العشرين ، وحتى هذه العشرين فقد عينه الشمال فى سبيل جمعها .. فهو منذ أن غادر قريته كفر جروان وهو يعمل عامل بياض فى بنها ، يظلي الحيطان بالخير ويزخرؤها بالالوان ، وهى شغلة عظيمة وفنية لولا قطرات من هذا السائل الكاوى لتطايير أحيانا من الفرشاة فتؤذى العيون وتآكلها ، وقد أكلت الشغلة عينه الشمال ، ولكن ماذا بهم ؟ وقد بقيت له عينه اليمين ، والحياة شقاء وقد خلقت للجدعان وهو جدد يكسب ويتفق ما يكسبه ، ويعيش عيشة أفضل بكثير من التى يعيشها أقرانه فى قريته كفر جروان ..

واستيقظ أبو ذراع على صوت عربة تكاد تموسه ، وافاق من أحلامه وهو لا يدري الى أى مدى استطاع أن يسير فى الاتجاه الصحيح ..

وكان قد سار أكثر من ساعة فى شوارع طويلة متعرجة ملتفة حول نفسها كأنها تعابين ، وسب عبد الرحيم الدين والدنيا عندما اكتشف انه عاد الى الميدان الكبير الذى بدأ منه رحلته ، وكأنه كان يسير فى بيت جحا بلا معالم ولا نهاية وفكر فى أن يسأل عسكري المرور ، ولكن شجاعته خانته ، فسأل رجلا كان يسير الى جواره فدلّه على الطريق وسار أبو ذراع من جديد حتى وصل الى البحر ..

ودقق أبو ذراع النظر فى الاتق البعيد لعله يرى بلاد بره ولكنه لم ير شيئا سوى البحر والسماء تكاد تنطبق عليه .. فراح يتمشى على الشاطئ وهو يسأل كل من يلقاه عن ابن عمه حتى وصل اليه ..

وجلس الرجلان على الرمال يشربان الشاي ، وحسن يسأل أسئلة مختلفة عن الناس فى القرية وفى بنها وعن المعاش والأرزاق ..

وأبو ذراع يحجب اجابات مقيدة ومختصرة ، وزامه الحليق

الصغير يدور خلال هذا كله فى كل اتجاه .. الى الناس الذين يفوضون فى الماء ..

ولكن الموضوع الذى ساء من أجله كان يلح عليه ، وكان يتحين الفرصة ليتحدث فيه ، وجاءته الفرصة عندما مسأله حسن عن السبب الذى من أجله قاده قنما الى الاسكندرية وشرح أبو ذراع المسألة فى بساطة ، ثم أمسك بقطعة خشب طويلة وزاح يرسم على الرمال أشكالاً مختلفة والدقائق تمر عليه تقيلة تأكل أعصابه القلقة فى انتظار رد حسن ، وقيل أن برد حسنة سمعت صرخة عند الشاطئ وخلق كثيرون ينادون على حسن ، وقام حسن بسرعة وألقى بنفسه فى الماء وزاح يسبح بشدة الى الغريق الذى كان يغالب الموج على مسافة بعيدة من الشاطئ ..

ولم يهتم أبو ذراع للمسألة .. فحوادث كثيرة من هذا النوع تقع عند شاطئ الترع فى قريته وعند حرف البحر فى بنها ، ولكن هناك لا يهتم أحد بالفرق وأحيانا رجال ذوو شهامة يلقون بأنفسهم فى الماء لانتقال الغرقى ، ولكن خلال الفيضان لا يجروا انسان على النزول الى الماء ، ولو كان الغريق أقرب المقربين اليه ..

ودار رأس أبو ذراع الى ما حوله ، الى البيض السمينات العاربات على الشاطئ وفى داخل الماء .. الى الرجال المقرنين المرفقين الذين يكاد الدم يتفجر فى عروقهم من الصحة .. الى الألوان الزرقاء والخمر والخضراء التى طليت بهما مظلات الشاطئ ، وأخذته روعة المنظر الجميل وسلبت عقله ، وتمنى لو يخلع الجنياب القفر الذى على جسده الهزيل ، وأزاح ذيل جلبابه فكشف عن سروال طويل الى ما تحت الركبتين ، وتمنى لو يقذف بالسروال الى البحر ، ويلبس غيره من النوع الملون الصغير وينزل الى الماء فيعوم .. انه يعوم أحسن من بعض الذين فى الماء ، وهو عندما كان صغيرا كان يعبر البحر عند قريته ، ولكن لم يكن له لباس ملون صغير وجردل متسل الاطفال الذين يراهم الآن ..

وكانت أياما سعيدة مرت سريعا ، رغم انها أصابته بمرض

العود ، والذي لا يزال يستنزف دمه كله .. ولكن العوم في
المالح جميل ، وليس في المالح دود ..
وطلع عليه جبل تفكيره سؤال عنيد ثار في رأسه فجأة
وتحدها :

- وكيف تريح بعد ذلك يا أبو دراع ؟ ..

وأجاب أبو دراع على نفسه والحسرة تملأ نفسه :

- صحيح ، وكيف تريح يا أبو دراع ؟ ..

وغاب بوجهه عن الشاطئ. وعن الجميلات وعن العسة ، وعن
القراخ وراح يفكر في هذا السؤال الذي ثار في عقله وتحدها
فالتوم على حرف البحر والاستحمام في الماء ، وشغل
الجميلات لن يترك له وقتا للريح ، ولا للعمل في شغل البياض
وهو لا يستطيع أن يهدأ لحظة لينتقط أنفاسه ..

انه في حاجة دائما الى العمل ليأكل ومن الذواخ الى القم كما
يقولون وهو يأكل يوما بيوم ، وأحيانا يمرض فلا يستطيع
أن يرتاح ، وأحيانا عموده الفقري يش عليه ويؤرقه ويود في
تلك اللحظات الصعبة أن يستريح ولكنه لم يجزؤ أبدا ..

لأن الراحة معناها الموت ، لأن معناها عدم الأكل ..
وهؤلاء الناس الذين حوله يرتابون كثيرا ولا يخافون شيئا
لا بد أنهم لا يعملون . وان الأكل متوفر عندهم بحيث لم يعد
أحدا منهم يفكر فيه ، ولا بد عندهم عمارات وأطيان ، وعندهم
ختم وحشم وأولادهم في المدارس وعقولهم ليست مشغولة بشيء
على الإطلاق ..

وتسمر أبو دراع بعموده الفقري يؤلمه ، فراح يتحسسها
بأصابعه الخمسة في عمل ، ورتت ضحكة الى جواره فظن في
اجتماعها ، فشهد شابا وفتاة يتفاهران عليه ويتضحكان ..
وخضر لأبو دراع أن يكون الفتى والفتاة قد ظنا أنه يهرش
في ظهره .. فارتعش بدنه وراح يتحسس ظهره من جديد
وهو يتصنع بقسمات وجهه الألم الشديد ، حتى يعرف الفتى
والفتاة انه يفعل هذا من الألم لا للهرش ..
وحاء ابن عمه بعد قليل ، فسأله عن الغريق فأجاب بأنها
حاله سليمة ..

وبعد فترة صمت قصيرة هتف أبو دراع يستفسر ابن عمه
رأيه في مسألة زواجه من أخته . وبأن عدم الاكتراث على وجهه
وكان المسألة لا تعنيه ، ثم أخذ يشرح الظروف المختلفة ، وكيف
انه أصبح بعيدا عن أمه وأخته وان كلا منهم مشغول بحاله ..

وفهم أبو دراع في النهاية ، أن ابن عمه لا يستطيع حل
المشكلة وان الامر كله في يد حساته ، فلعن الشيطان الذي
وسوس له بالسفر الى الاسكندرية ، ونهض بعد قليل فصاح
ابن عمه في غير حماس وصعد السلالم على مهل الى الشارع
العريض ، وراح يمشي الى جوار السور محسنا النظر في
الشاطئ ، وفي البحر الواسع العظيم وبنت له الفتيات في هذه
المررة من بعيد كأنهن حمامات في ألوان مختلفة وتساؤل في
حيرة شديدة ، ترى كم تساوى الحمامة من هذا النوع .. وبنت
عمه حميفة تصر أمها على ثلاثين جنيتها .. لا بد أن الواحدة
منهن تساوى ألفا ، وربما مليوناً .. وبلغ أبو دراع ريقه ،
وعرش في قفاه ، وألقى نظرة أخيرة أسفة على الرمال وعسى
البحر وعلى الرجال والنساء الذين يمرحون في الماء وفوق
الشاطئ ، ثم استدار ناحية الشارع وعبره وتبأ ، وراح يسأل
كل من يلقاه عن محطة السكك الحديدية ..

غيط القصب ..



يا وكستك يا حمدان بعد هذا العمر الطويل تطلع حرامير
وتدخل اللومان وبموت أولادك من الجوع في كفر الغنایم ..
وانت طول عمرک شریف تضع علی رأسك لبدة ، وعلی صدرك
نمرة ، وعلی كتفك بمنقبة تحرس بها غيط القصب للشركة ،
ولك مرتب ثابت كالمستوظفين واننت طول عمرک قانع يا حمدان
بالجنیبات الثلاثة كل شهر ، تمنع اثنين منهم للعیال فی كفر
الغنایم ، وتصرف انت واحد طول الشهر تأكل وتنام وتلبس
وتشرب الشای وأحيانا تدخن السجاير الممتاز ، والجنیه صحیح
لا يكفيك ، والأمراض تنهش جسمك والروماتزم ينشر عظمك
وأصابع قدميك تطل من بوز الجزمة ، والعقارب تروح حولك فی
الجحر النبی تأوی اليه والشقوق التي تمسرق بیدك تقدمت
والحیبة تحط عليك من كل مكان ..
وقطع علی حمدان تفكيره غلام جاء بعدو من بعيد ، ويزعق
بصوت كریه وكأنه غراب :

- فز يا حمدان كلم لغندی فی الشركة ..

وزام حمدان كأسد أسير ولم يتكلم ، وأعاد الولد نداه ، ثم
استدار وراح قافرا متلما جاء ، وقضم حمدان إبهامه ، ثم نكش
شعر شاربه المنفرش ، وعاد يفكر فی الوكسة العريضة التي
أصابته آخر الزمان .. فلا بد أنها ساعة نحس تلك التي رأه
فيها الاقنندی معاون الشركة وهو يبيع حزمة القصب بقرشين
والاقنندی معاون مؤذي لا يرحم أمه ، وسيطرده حتما وربما
قدمه للمركز مقبوضا عليه ، والمركز يسمع كلام الشركة ..

وتهازيك أزرقي يا حمدان لو سجنوك .. فمرة قبل الآن ضبطوه
وهو يسرق القصب .. ويومها مسلموه للمركز .. وضربه
العساكر بالكفوف والقوايش .. وبات أربعة أيام على الأستقل
ثم أطلقوه حرا بلا تهمة ولا عمل .. لأنهم في الشركة استغفوا
عن خدماته .. وليس يعقل أن تقبل الشركة بين خفرائها
لصوص من عينة حمدان .. ولكن حمدان ليس لصا ، وهو
لا يصدق أبدا أن الشركة تتصله من أجل حزمة قصب يضع
مثلها عشر مرات في كل ساعة ، طعاما للذباب ، والفلاحين الذين
يعبرون الطريق ، واللصوص الذين يعيشون داخل غيط القصب
والشركة لن يلحقها الحراب من أجل حزمة قصب يبيعه حمدان
لا بد أنها عين أصابته من العاطلين المظلومين على جانبي السكك
في كفر القنايم ، وحضيت أقدم حمدان عند الشيخ ، وعند
الثائب ، وقبل رجل الضابط ، وانحنى على يد الشاويش ..
وإما أياما عند بيت المعاون .. ثم قبلت الشركة أن يعود
إلى عمله على شرط ألا تمتد يده إلى عود واحد من القصب ..
ورضى حمدان بشرط الشركة .. وهو على يقين بأن يده ستمتد
دائما إلى غيط القصب ينتزع منه عيدانا يصبها وأخرى يبيعهما
ويحصل على ثمن الدخان ، وغيط الشركة مثل بحر المالح ليس
له بروز ..

وعاد حمدان إلى غيط القصب يحرسه ، والتجربة التي
خاضها قد غمرت نفسه بأحاسيس جديدة ، وحركت برأسه
أسئلة كثيرة لم تكن تطوف به من قبل لماذا تكره الشركة السرقة
عندما تكون من جانب حمدان ، مع أن الشركة تسكت على
سرقات علي نطاق أوسع تقع من جانب اللصوص يعيشون داخل
القصب ، والشركة تعرف هؤلاء واحدا واحدا ، وتدفع لكل
منهم أجرا كبيرا يوازي أجر المدير ، وتحترمهم أيضا وتتركهم
ينتزعون محصول فدادين كثيرة والشركة تبدو راضية كل
الرضى .. بل أنها في أحيان كثيرة تأمر بتعيين أنفار لا حاجة
إليهم لأن هؤلاء اللصوص أشاروا بتعيينهم وهو يعرف هؤلاء
اللصوص جيدا ، فهم ينزلون ليالي كثيرة عليه ويتضون ساعات
الليل معه ، يشربون الشاي ويتحدثون أحداث فاجرة ..
ويستمون المدير والمعاون ويتحدثون عن الضابط حديثا

صريحا وكانهم لا يخشونه ، ومن خلال تلك الأحاديث فهم
حمدان أنهم على علاقة وثيقة بالشيخ وبالنايب ، وأنهم أحيانا
ينزلون ضيوفا عليهم وعلى الإعيان يأكلون ويسمرون وكانهم
معهم في نفس المنزل ..

وتوقف حمدان عن السرحان فقد ناداه خير آخر من عند
باب الشركة بصوت مرتفع ..
يا حمدان كلم لئنتي المعاون عاوزك ورد حمدان بصوت
أعلى :

– طيب ، يعنى عوه مستعجل جوى ع الشر ..
واستدار الخبير الآخر وعضى داخل الشركة ، وعندما غاب
عن ناظره عاد يفكر وهو يتساءل في دهشة عن السر الذي
يغصل بينه وبين هؤلاء اللصوص الذين يعيشون داخل غيط
القصب أنهم ليسوا أقوى منه جسدا ، بل هو أقوى من
بعضهم ! طوله مفروط ، وقلبه ميت لا يخشى الأستردومه
بتدقيقه من نفس النوع الذي يحملونه ، ولكن هو عار ، وهم في
أبهى حلة ، الجلابيب الصوف والجوخ في الشتاء ، ومن تحتها
القفاطين الشاهي والجزم الطويلة في أقدامهم ومن تحتها
الشرابات الصوف ، والكتانين الذهب تتدل من جيوبهم
وفي الصيف يلبسون الحرير الطبيعي والغانلات المشفولة
بالأبرة والصنادل التي تكشف عن الأصابع والكميين ،
وهو مقلد دائما ، وهم دائما في يسر ، محافظهم منتفخة ،
وسجائرهم من نفس النوع الذي يتدخنه الضابط واللفنتي
المعاون ، وهو يشرب السجائر المفروط ، ولا يجدها بسهولة
فييد يده إلى غيط القصب ليعيد عصفير رأسه التي تهرب
منه وتطير ..

سؤال غريب . احتار حمدان في البحث عن جوابه ..
ماذا يفصل بينه وبين هؤلاء اللصوص حتى أنهم يرتعون في
النعمة ، ويشرب جو كل مافى الوجود من دال وحوان ربعه
الضابط ، ويبعد النوم عن عينيه أفندي مفعوض مثل المعاون
أه أقوى من بعضهم بالسلاح الذي معه مثل السلاح الذي
معهم ولكنه يمتاز عنهم بأشياء كثيرة هي أنه يستطيع المشي
أمام مركز البوليس في أي وقت يشاء وهم لا يستطيعون ..

وشيخ البلد يسأل عنه أحيانا ، ولا يسأل أبدا عن هؤلاء المطايرد والثائب زاره مرة في بيته وجلس معه فوق القرن وشرب معه الشاي وعامله بمودة ويوم الانتخابات ذهب معه تذكرة التي بها في صندوق - والأخرين لا يستطيعون أن يذهبوا فليس لهم تذاكر ، وليس لهم عند الحكومة وجود .

منها الاحترار ، ويبدو أنها مستتظلمة مقلوبة ، ولا سبيل الى اصلاحها على الاطلاق . ولو أن هناك عدلا لمنحته الشركة العلاوة التي طلبها منذ عام ، إذا ما سرق ، ولما وقف هذا الموقف الذي لا يدري كيف يواجهه . فقد فات الأوان ، واقتصر بدن حمدان كله وهو يتخيل نفسه في الحديد ، وصفا من الجنود يحمسه ، ثم المحاكمة والسجن ومضرب أسرته في كفر القنايم وكلام الناس عليه . وأطفاله كلهم صغار ليس فيهم من يستطيع أن يعول العائلة وكفر القنايم كله مسوف يضممت فيه .

وستهون أسرته وتقل ، مستخدم الذي يسوي والذي لا يساوي شيئا في سوق الرجال . وهو نفسه بعد أن يخرج من السجن ويعود الى كفر القنايم ، ماذا يفعل وهو لم يكن يجد عملا في الحقول قبل أن يعمل في الشركة ، انه سيبقى ملطوعا على جدار المضيفة يدور مع الشمس اينما تدور .

ولو أنه لم يسرق القصب في تلك الساعة المهيبة التي كان المعاون يمر فيها على الحفراء لما حدث من هذا شيء ، ولكن الله يخرب بيته محمد أفندي المردوس الأترامي هو الذي أصر على شراء حزمة القصب في تلك الساعة لأن أولاده مغرمون بقصب القصب في النهار وهو طول عمره يسرق القصب ويبيعه في الليل ، ولكن هكذا أراد له القدر ومحمد أفندي وأولاده المغرمون يبيع القصب في النهار أسباب ليس الا وليس أمامك يا حمدان الا التسليم بارادة الله .

ونفخ حمدان وهو ينتزع بأصابعه من حبه الداخلي سيجارة يشعلها عليا تهدي ، أنصابه ، وتضغط بخانها على الثورة التي تجيش بنفسه . ولو كانت العسكرية قبلته لاستراح من هذا كله ، ولكنه لسوء البخت - أقرع - والعسكرية لا تأخذ القرع

وعلى عينيه الشمال سحابة أصابة بها مرض لا يدري عنه شيئا كاد يفقده نور عينيه وهو طفل صغير .

وأشعل حمدان السيجارة ، وجذب منها أنفاسا عميقة - وراح ينظر بعين نافذة الى غيط القصب الذي يترامى أمامه مريضا مثل البحر المالح ليس له برور ، وفي داخله تسكن أسود كاسرة من البنى آدم تحتقر المدير والمعاون ، ولا تخشى الضابط ولا تعمل حسابا للحفراء وتلبس الصوف في الشتاء والحزير في الصيف وجيوبها عامرة بالمال ، وسجائرهما فأخرة النوع ، ولها من الشركة مرتب الحواجر المدير ، وممصص وحمدان شفتيه وبنت علي وجهه ابتسامه أزغشت معاله كلها - وجاهه نداء مرتفع من الخلف يطلب اليه أن يسرع في مقابلة المعاون . ولكن حمدان لم يسمع النداء ولم يهتم به ، فقد تحسس سلاحه ونهض على قمعيه ، واخترق هنا السياج الذي يفصل بيته وبين الأسود الكواسر التي تسكن الغيط وانفجرت أعواد القصب وتهشم تحت أقدامه أعواد ما لبثت إلا عادت وتآلفت ، وغاب حمدان من خلفها عن الأنظار . وغدا سوف يصبح حمدان واحدا من الأسود الكاسرين .

الريس عواد . .



كانت الحركة على أشدها داخل معسكر فايد الكبير والجنود الحمر الوجوه يذهبون ويجيئون في طوابير منتظمة وكانهم جيش من التمل يرحف على أرض مبهتلة ، والعرق يتصبب من جباه الجنود بغزارة ويتدفق على عيونهم فيؤذيها ، وعلى ملابسهم فيبيلها ويكسبها لونا غريبا شبيها بلون المياه الآسنة .

وحول أسوار المعسكر الشائكة كانت هناك عدة طوابير من عربات النوري الضخمة في انتظار شحن الجنود والمهمات لتُنقلها الى الميناء ليأخذ الجميع طريقهم عبر البحر الى بلاد بعيدة ورغم أن الجو كان حارا تقريبا لكنم الأتاس وشمس يولية القوية تتوسط الأفق باعثة حاراتها القاسية في زمال المعسكر الا أن الجنود الصغار ذوي الوجوه الحمر كانوا يبدون أكثر سعادة وأشد بهجة من أي وقت مضى وكانت أصواتهم الحسنة الواضحة بفعل الحرارة الحائقة ترتفع بين الحين والحين بأغنيات قصيرة جميلة لانغني فرحتهم بمغادرة هذا المكان الكئيب وسط صحراء فايد الفاتحة .

وعند باب المعسكر كان هناك بعض الصعايدة الآسداء يساعون في نقل الأمتعة الى العربات ، وبعض رجال البوليس الحربي يشرفون على عملية الشحن ويلقون ببعض التعليمات . وعلى الجهة الأخرى من الطريق كان الريس عواد يجلس أمام العشة التي يملكها والتي يراى إليها الرجال الذين يعملون عند الانجليز في الليل يشربون الشاي ويدخنون كراسي المعسل بالحشيش متربعا على الرمال وعصاه الضخمة التي يعتز بها والتي لاتتأرق يده أبدا ملقاه أمامه وقد دفن جزء منها في الرمل

وبعيناه الحادتين كعيني صقر تحدد في باب المسكر وفي الجنود الذين يذهبون ويجيئون وأصواتهم تملع بالفتاء . ومنذ أكثر من خمس ساعات وهو جالس كالتصال صامتا كماذنه يشهد عمليات الجلاء عن معسكر فايد الكبير . وأحيانا كان يقطع صمته عليه مرور عربة تحمل بعض الجنود فيضطر الى رفع يده المعروقة التي غطاها الشعر يرد عليهم تحيتهم ثم يعود الى صمته من جديد ، وكانت تحيته - رغم بروده وصمته - تحمل حرارة شديدة نحو هؤلاء الجنود الصغار الذين عاش معهم طويلا ولن يقدر لهم أن يراهم بعد الآن جون وجوني وجورج ودجبي ، وهذا الضئيل الأتسقر المتعود دائما كقار . ستيس الصمتر . انه يعرف هؤلاء الجنود جيدا ، ويعرف غيرهم كثيرين . فهو يعمل مع الانجليز منذ خمسة عشر عاما . عمل معهم في بداية الحرب ، في طريق وفي العلمين وفي ليبيا . وشهد انسحابهم الطويل وشهد انتصارهم أيضا . وتعلم لغتهم ، وبعض عاداتهم . ونضيلة الصمت التي يتميز بها الآن يرجع الفضل فيها اليهم . . فقد كان الريس عواد قبل ذلك شغوفا بالكلام .

وتذكر لويس عواد الصاجن رايلي ، الايام العصيبة الحافلة التي عاشها معه في سبيدي براني ، وكان يحلو له أن يؤذي الناس . الجنود والانتقار الصعايدة والاسرى الطليان . ولكنه في المساء كان ينقلب حملا ودبعا ، يشرب كثيرا ويغني ويرقص ويهذي بكلام غير مفهوم . ومضت عربة مسرعة أمام الريس عواد وأثارت عاصفة من الرمال . ورفع الجنود الذين بداخلها أيديهم بالتحية ورفع الريس عواد يده هو الآخر في حماس ، ثم عاد الهدوء يلف المكان من جديد ، وعاد الريس عواد الى ذكرياته مع الصاجن رايلي في سبيدي براني ، وفي بير حكيم . ولكنه في بير حكيم لم يكن صاجن وقتئذ . كان مثله أميرا في معسكر يضم مئات من أمثاله ، وبعض الصعايدة الذين عثر عليهم الطليان داخل المدينة مع الانجليز وكانوا كتب على رايلي أن يشرب من نفس الكأس الذي سقاها للآخرين . فقد كان وحده دون الاسرى جميعا مشاكسا عنيفا ، وكان الطليان يعذبونه كثيرا

وساعات صحته وانهارت أعصابه . ثم مضت عليه فترة طويلة وهو صامت في ذمول . ثم عاد انفسانا ككل الناس ، هادئا مطعبا ، يقضى أغلب أوقاته مع الرئيس عواد وهو يقبل أمام عينيه صورة لزوجه مع ولده الوحيد . . . واستطاع أن يعرف أسرارا كثيرة واستطاع كذلك أن يجبه ، وكان من قبل يكرهه ويتمنى لو يموت ، كان الصاجن رايلي مغرما باصمدار الاوامر . يصدر أمرا بالحق وأمرنا بالحرب ، وأمرنا بالسير الى أمام ، ثم أمر بالارتداد الى الخلف ولكنه في الأمر علم أن رايلي غير ذي سلطان وأن هنالك رجالا عجائز يحملون النباتات ويعيشون كالألوية ويلعبون حول قباعاتهم شرائط حمراء فاقعة اللون هم الذين يصدرون الاوامر ويديرون الحرب ولا أذى يصيب أحدهم على الاطلاق . . . ودعش الرئيس عواد لهذه الأسرار التي اكتشفها خلال الأمر . . . ودعش أكثر لأنه لم يسبق له رؤية واحد من هؤلاء العجائز الكبار . وكان من قبل يظن أن رايلي هو الذي يأمر وهو الذي يسخط وهو الذي يدير الحرب كما يشاء . . . لذلك كان يبغضه . . . أما الآن فقد فتح الرئيس عواد قلبه للصاجن الرايلي . . . أحس أنه مثله ، يتحرك هو الآخر كما يريد السادة الكبار . يقتل ويسلب ويموت . . . والهدف نقية العيش

وبعضت عربة أخرى أمام الرئيس عواد ، ورفع الجنود عقيرتهم بالصباح وأيديهم بالتحية ، ولم يلحظ الرئيس شيئا من هذا كله كان مشغولا عنها بذكرياته في بير حكيم مع الصاجن رايلي ، في تلك الليلة المشتولة يوم رحل التيفود من المعسكر بعد زيارة طويلة ، ورحل معه كثير من الأسرى الانجليز ومنهم الصاجن رايلي ، ودفنوه في الصباح في حفرة كئيبة حول أسوار المعسكر . . .

وانقطعت أفكار الرئيس عواد فجأة عندما شاهد عليه سجناء ضخمة تتلحرج أمامه على الرمال ، التي بها جندي سعيد حدية للرئيس العجوز . وقام من مكانه وثبا كالنصف فالتفتها بسرعة ثم مسحها بجلبابه وأخفاها في جيبه . ورفع كلتا يديه بالتحية لجنود العربة التي كانت قد انحرقت ناحية اليمين وغابت عن الأنظار وراح الرئيس عواد بذلك ساقه المريضة في حنان ويضعف

بأصابع يده الحشنة على وركبته متحسسا الكسر القديم من أثر الشظية التي أصابته في ليبيا وتذكر تلك الأيام التي قضها في المستشفى لا يتحرك ، وساقه معلقة في السرير وكان المستشفى نظيفا والستات الذين يخدمونه فيه انجليز وطيبين . . . لا يضررون أحدا ولا يزعمون في وجه أحد حتى إنه تمنى لفترة ما أن يتزوج احداهم ، ولو كان هذا قد تم ، إذن لعاد الرئيس عواد الى شيابه المفقود !!

وتذكر كيف عاد بعد ذلك الى مصر ، فقد كسب الانجليز الحرب وفصلوه ، وكان النصر مفاجأة له . وكان لا يتصوره ، فهو يعتمد على العمل ريس أنفار مع الجيش ، وكان يعتقد أن الحرب ستمتد الى الأبد وكان متفائلا على الدوام . حتى بعد أن دخل الانجليز ألمانيا . فقد كان يعلم تماما أن هتلر سيقبض المخزن ١٣ . وأن الحرب ستعود من جديد ، ولكنه علم من الجرائد بعد ذلك أنهم قتلوا هتلر قبل أن يتسكن من فتح المخزن . كما أن المخزن اختفى بعد النصر . لابد أن هتلر أخفاه في مكان ما في الجبل . وحكاية قتل هتلر لا يمكن أن تدخل عقله فهو يقينا اختفى هو الآخر ، ولن يلبث طويلا حتى يعود . وعاش الرئيس سنوات طويلة على هذا الأمل . ولكنه كان أملا كاذبا لم يتحقق . والنقود التي كسبها من الانجليز أخذت تتبخر من بين أصابعه ، وكان لزاما عليه أن يجد عملا ليعيش . ولكنه لا يجيد شيئا سوى هيئة توحى بالاحترام . وهو لا يقبل عملا أقل من ريس أنفار . كفاه ما لقيه من مرطبة أيام أن كان يسرح بالقبص والموز في شوارع القاهرة ، أو يعزق الأرض في قريته نزالي جنوب . وهو الآن يرطن بلغات ستمى . وعنده قدرة عجيبة على العمل وجلد شديد . ولكن أحدا لا يريد استخدام هذه المواهب الضخمة التي فيه . . .

وهكذا عاد الرئيس عواد الى قريته في أعماق الصعيد . بعد فترة غياب طويلة امتدت عشرة سنين . ولم يكن فيها من بهمه امره . سوى أخت شقيقة متزوجة من باع سريع . وأخ شقيق كان صغيرا عندما غادر الرئيس عواد القرية ولكنه كبير الآن وأصبح رجلا ، والرزق في القرية محدود ، فنجده من يده

وجاء به الى مصر ، ولم يكن بها عمل ، فهدأ رحالهما الى القتال
الى المعسكرات التي تاق لرؤيتها الرئيس عواد . الى الجنود
السكاري الصائحين .. الى الحياة الشاقة الجميلة داخل
الصحراء . ولكنه لم يجد عملا في القتال ، يبدو ان الفخر
لحق الانجليز أيضا . وكانوا خلال الحرب من أعنى الاغنياء .
ولكن اليأس لم يتطرق الى قلبه أبدا ، فالحيلة لا تنقصه ليعمل
.. وهو الذي خاض الحرب وجاب أقطار الأرض جميعا . وفي
المعسكرات خير كثير . وهو في حاجة الى شيء منها ولن تقف
عقبة في طريقه ، لا الأسلاك الشائكة ، ولا الكلاب المسعورة ،
ولا الخراس بمدافعهم الرشاشة ..

وهكذا وجد الرئيس عملا وكذلك اخوه . ان الانجليز ما زالوا
أغنياء . يملكون مخازن مشحونة مهما أخذ الانسان منها فانها
لا تنقص . وعو لا يدري لماذا الانجليز وحدهم الاغنياء .
والمصريون والافريكان المسود فقراء ؟ لا بد أنه نظام الله ،
والدنيا لا تستقيم - كما يقول الشيخ سمرغان - الا اذا مات
بعض الناس جوعا ، وعاش بعضهم في نعيم مقيم . فهناك
سحبات ، وهناك غنى ، وهناك ملك ، وهناك فقير ..

ومضت من جديد عربة على الطريق . والجنود الذين بداخلها
يعنون ويرقصون . ولم يلبثت واحد منهم الى الرئيس عواد
وصو يرفع لهم يده بالتحية فعاد الى تفكيره ، يذكر الأيام
الطويلة التي قضاها في فايد بفتح المعسكرات ، ويخطف كل
شيء . ثم انطلقت رصاصات غادرة ذات ليلة في الظلام فقتلت
أخاه منصور .. الرجل الزين ولا كل الرجال .

وبان القم المسديد على وجهه ، وتنقصت عضلاته وهو
يضغط على أسنانه بشدة وكأنه يطحن تحتها جسما صلبا .
انه يذكر تلك الليلة جيدا ، وفي داخل المعسكر الذي يبدو
أمامه . وكان منصور الى جواره عندما انطلقت الرصاصات
تمزق سكون الليل . وسمع صراخه ورأى بعينه في ضوء
القمر الشاحب دما غزيرا يتدفق على الرمال ، وسمعه
يستغيث . ولكنه لم يجرؤ أبدا على أن يفيته ، فقد كانت
الرصاصات تطلق من حوله مجنونة كأنها السيل المنهمر ،
ولم يره بعد ذلك الا أياما جثة هامئة احدثت بها الرصاصات

تقريبا كأنها غربال ..

ولم ير الرئيس عواد النوم بعد ذلك ، كان لا بد من الانتقام .
وقتل جندي واثنين وثلاثة .. وكان ينوى أن يقتلهم جميعا
.. هؤلاء الكلاب ..

ومرت عربة من أمامه تحمل فوجا جسدينا من الجنود في
طريقهم الى الميناء وعندما رفعوا أيديهم بالتحية لم يرد عليهم ،
كانت نظراته اليهم تحمل كثيرا من المعاني ، وتحكي كثيرا من
الأمور ..

وعاد يذكر تلك الأيام العصبية التي مرت عليه ، والقلق
ينهش أعضابه ، والندم يأكل نفسه ، لا بد من قتل الجنود
جميعا والا فإنه لن يرى النوم بعد ذلك ، وراح الرئيس عواد
يذكر تلك الليلة التي أطلق فيها النار على جندي الحراسة
محاولا قتله . وكيف سقط الجندي على الأرض وهو يصرخ
صرخات مجنونة مزقت السكون ، وانطلقت بعدها الاوتار
الكثافة كذئاب تحث عن فريسة ضالة . وقبع هو مكانه
في الحفرة العميقة المظلمة داخل الرمال يسمع صراخ الجندي
الصاب . وتعجب ليفتها ، فهذا الجندي يصرخ ويكي .. انه
بشر مثلنا . وكأنما محت صرخات الجندي كل ما في قلب
الرئيس عواد من حقد ، فتسنى لو يعيش ، نسي أن أمنيته لم
تتحقق .. فقد علم في الصباح أنهم دفنوه . وحزن الرئيس
عواد كثيرا على الجندي القتيل .. هذا المسكين الصغير لم يكن
له ذنب . انه مثل الصابج رابلي عبد المأمور والأوامر هي
التي قتلت أخاه وهي التي قتلت كل الجنود . وهو عرف خلال
الحرب جنودا يكرهون مهنتهم ، ويكرهون رؤسائهم المتعرجين
الذين يصدرون الأوامر بالزحف والقتل ثم يتكبرونهم يموتون
وعندما انتهى الرئيس عواد من أفكاره كان المكان قد خلا
تماما الا من عربة واحدة على وشك القيام . والجنود الذين
بداخلها يدورون حول أنفسهم وأيديهم متشابكة وأصواتهم
تهمس بلحن رقيق سمعه الرئيس عواد في ليبيا من قبل .
وتعجب لأن الجنود الصغار ما زالوا يحفظون الأغاني التي كان
يردها الآخرون أيام الحرب . وعندما مرت العربة من أمامه
هب الرئيس عواد واقفا في قدميه رافعا كلتا يديه بالتحية ،

وفمه الواسع مفتوح عن ابتسامة عريضة . وعندما استدارت
العربة واخفتت جلس الرئيس أمام العشة ينظر الى المعسكر
الذي أصبح خالياً من الجنود ، ثم مد يده في جيبه فأخرج
عليه السجائر الضخمة فأشعل سيجارة وراح يجذب منها
أنفاساً عميقة وهو يتحسس ساقه المريضة من أثر شسطنية
قنبلة أصابته في ليبيا . ثم رفع بصره وثبتته على بوابة
المعسكر عندما لمح عربة فاخرة تجتاز البوابة وفي داخلها
ضابط يلف حول البريتينة شريطاً أحمر ، ومد الرئيس عواد
رأسه في الفضاء مدقفاً النظرة داخل العربة التي انطلقت على
الطريق في اتجاهه لابد أن هذا الذي بداخلها واحد من الذين
يصدرون الأوامر للجنود ليقتلوا الناس ثم يتركهم يموتون .
لقد سمع عنه كثيراً أيام الحرب .. وهنا في القتال . وعندما
أصبحت العربة أمامه بصق على الأرض في غضب شديد ، ثم
مسح قمه بإراحة يده المضمضة .. وارتعشت شفته وهو يقرأ
الفاحة على روح المرحوم منصور .. والصالحين رابلي .

قضية ..

كانت الساعة السادسة
صباحاً حين خرجت من بيتها في
الأزهر فأتجهت الى ميدان العتبة
ومن ثم انخرقت الى شارع
محمد علي فيصعد باب الحلق ،
ثم أتجهت الى دار محكمة العمال
ولم تلبث أن واصلت سيرها
في الاتجاه الذي أشار إليه ..
وهناك سألت جندياً يقف عند
الباب عن مكان محكمة العمال



ولم تلبث أن واصلت سيرها في الاتجاه الذي أشار إليه .
كانت المحكمة لم تبدأ عملها بعد ، وجموع كثيرة من الحلق تحوم
في الساحة المنتسطة أمام المحكمة وتجلس القرفصاء على أرض
الفناء الداخلي ، والجسج مشتبك في حديث طويل لا ينتهي عن
سير القضايا ، ورقة قلب القاضي ، وقسوة قلب الآخر ،
وصاحب الوجه السمح ، وصاحب الوجه الكئيب ووقفت هي
بينهم لا تدري ماذا يجب عليها أن تفعله وكل ما لديها الآن
خطاب من قلم المحضرين يأمرها بالمضور اليوم الى المحكمة
للنظر في القضية المرفوعة منها ضد الحواجة روبر
الحالات الضخمة القائمة كالهزم الكبير ..

وعندما سألت أحد الحاضرين تقديمها الى لوحة معلقة على
الحائط وانحنى عليها يقرأ بعينيه الذائبتين الأسماء المثبوتة
في غير وضوح ، ثم هتف بصوت عال :

— أيوه النهارده يا ست ، أم زهرة والحواجة روبر .
وقالت أم زهرة تسأله :

— طيب وحاعمل إيه يا نضري ؟ ..

— تستنى طد مايندهولك ..

وأسندت أم زهرة ظهرها للحائط ، ولم يمض وقت طويل
حتى شعرت بالإرهاق الشديد فافتترشت الأرض وجلست
تتفرس في وجوه القادمين والخارجين ثم مالبت أن كلت عينها

من كثرة التحديق في الوجوه .. فحولت نظراتها نحو الأرض وراحت تردد بينها وبين نفسها العبارات التي قررت أن ترويا للقاضي حين تدعى إليه . والمسألة بسيطة وليست في حاجة الى شرح ، أنا واحدة ست عجوزة وغلبانة وشرف سعادتك ، وياجرى على سماع يتامى ، ربنا يديك العمر الطويل ، وعمه الي رفدوني ، وناس طبيين زى حضرتك قالوا أجي لسعادتك ، وأنا عثمانه فيك وفي ربنا ، دول سبعة يتامى والنبي يايه ..

هذه هي الحكاية كلها ، ليست في حاجة الى شرح كثير ، والقاضي ربنا يجعله طيب ابن حلال فيأمر بالغاء قرار الفصل وتعود الى عملها تفصل الهدوم في المصنع الملحق بمحلات الحياجة رويبر ..

ورفعت أم زهرة رأسها من جديد تحنق في وجوه الخارجين والداخلين ، وأخرجت من بين طيات ملابسها ورقة صغيرة مطوية سلمتها لواحد كان يعبر الفتاة على عجل شديد .

– خذ والنسي تشوف القضية دي امتي ؟
وقرا الرجل الورقة بسرعة ، ثم صنف وهو يتابع سيره .
– دي القضية نمرة ٢٦ .. بعد شوية .

ولم تفهم أم زهرة هل هي بعد شوية كثير أم شوية قليل . ولكنها لم تكتفرت لهذا كثيرا بل تركت رأسها تتنحرج على صدرها وراحت تفكر من جديد في اللحظة العصبية التي ستمر بها عندما تواجه القاضي صاحب الهيئة والمقام الكبير وفكرت أم زهرة في الكذبة التي اخترعها لها عبد السلام المزجج الذي يسكن الحجره المقابلة لحجرتها فوق السطح ، والذي أكد لها انها بهذه الكذبة ستريح القضية ما في ذلك من شك .

– قولي انك بياعة في المحل ، ماتقوليش غسالة ، همه الغسالات لهم حقوق ، لما تقولي بياعة القاضي يرجعك على طول ..

وذعب تفكير أم زهرة الى كل اتجاه ..

– هل صحيح ان القاضي سيصدق هذا الزعم ؟ ولكن من يدري ، ان القاضي لم يرها في حياته ، ولا يعرف ان كانت

غسالة أم بياعة ، وهي لابد لها من أن تكسب القضية لتعود الى مصنع الحواجا رويبر ، فهي منذ أن طردت من المصنع وعى تدور كل يوم كالنحلة على بيوت الطلبة تفصل وتكتسب وتطبخ وتتقاضى قروشاً لا تكاد تفي بمطالبها التقافية .

وعندما كانت تعمل عند رويبر كانت تعمل ست ساعات فقط في اليوم ، وتتقاضى أجرا مناسباً خمسة عشر قرشاً . ولو انها كانت في شبابهها الفتى ضاع لما أقلقها شيء . فمئذ عشرين عاما كانت تلف وتدور ، كانت صحتها عال وزى اليب ، لم يكن الروماتيزم قد عشم ساقها ، ولا البرد مزق صدرها ، ولا اليكاه صبغ عينها بون الدم ، والله يرحمه المرحوم عندما كان حيا يوزق ، كان سعيما ، وكان يشقى لثرتاج ، ويكدح لتسعد ، ثم سقط ميتا فجأة لا تدري لماذا ؟ وكان في عز الشباب ! ومن يومها وهي تذوق المر ، وتضرب كل مرارة الحياة لتنجري على السبعة اليتامى الذين كبروا الآن وشاخوا ولا فائدة ترجى منهم على الاطلاق . فأربعة منهم بنات مكسوزى الحاطر والجناس ، والثلاثة الشحوط الآخرين لا يعملون شيئا كقاهم اللطعة على المقهى ، ولعب الورق والحطاف أحيانا من عباد الله ..

وذاس واحد يجرى مهرولا الى داخل المحكمة على طرف ملاءة أم زهرة فانترعها من خواطرها .
وعندما نفخت التراب عن طرف الملاءة كان الحاجب يصرخ على بعد خطوات منها :

– أم زهرة والحواجا رويبر ..

وهي تأم زهرة مذعورة وكأنها مسبوقة الى السجن ، وقطعت الفتاة وثبا ثم انحرفت الى الردهة الطويلة ..
ومن ثم وصلت الى قاعة المحكمة وتناولتها يد خشنه دفعت بها أمام المنصة التي يجلس خلفها القاضي ، وعندما نظرت اليه اطمان قلبها قليلا فقد كان شابا في منتصف العمر حليق الذقن عازي الرأس ، تدل قسماته الوسيمة على أنه ليس بالصورة التي رسمها له خيالها العريض .
وعندما سألها القاضي في رقة :

– أنت أم زهرة ؟

أجاب على الفور دون تعلم :

- أبوه يابيه ربنا يخليك

مالكيش محامي

أنا غلبانة وبجري على سبع عيال يتاهي ربنا بديك طولة
العمر يابيه ..

وقال القاضي في صدوه :

- وكنت بتستغلي إيه ؟

وترددت أم زهرة قليلا قبل أن تقول :

- بياعة ..

وغاص قلباًم زهرة في ركبتيها عندما سمعت صوتا أجشما
يرتفع الى جانبها يكذبها في ثقة :

- الكلام ده كذب ..

ونظر القاضي الى صاحب الصوت بسرعة ، كان رجلا في
الأربعين من عمره ، قصير القامة ، ضخم الجثة أحمر الوجه
جدا كوردة متفتحة ، يتدلى تحت أسفله ذقنه لغد سمين ،
وكان يرتدي بذلة بيضاء حفاقة ويمسك بيده متدليل معطر
قفوح منه رائحة نفاذة ، يمسح به وجهه بين الحين والحين
ليخفف العرق المنصبب على جبهته العريضة الحمراء .

وقال القاضي للرجل القصير البدين :

- الأستاذ حاضر عن روبري ؟

- أبوه يافتنم .. شوكت رشاد يحضر عن المدعى عليه
الحواجا روبري ..

واتجه القاضي من جديد الى أم زهرة وسألها في رفق
شديد :

- وبعدين ياخاله ..

- همه ردفوني وحياة شرفك ، ونا كنت بياعة .

وعاد المحامي يرفع صوته بنفس الكلمة :

- كذب ..

وقاطعه القاضي على الفور :

- سيببها يا أستاذ أما تتكلم ..

- بس أنا عاوز أوضح لعدالة المحكمة حاجة مهمة جدا .

- طيب لما نسمع لها الأول ، عيه إيه الحكاية ياخاله ؟

- ولا حاجة والنبي ياسعادة البيبه عمه الى قالولي ماتحيش
بكره ..

- اشتغلتني عندهم أد إيه ؟

- سنة وجمعتين

- وكنت بتأخذني كام ؟

- ١٥ قرش في عين العدو .

ولم يكن القاضي ينتفت الى محامي الحواجا روبري حتى كان
الأخير مستعدا متحفزا وكأنه على وشك الدخول في معركة
فاصلة يتوقف عليها مصير العالم . وانطلق من فوره يقول
في حماس شديد :

- مسيدي القاضي .. هذه المرأة التي تقف أمامكم كاذبة
في دعوها . فصلات الحواجا روبري محلات معروفة وأناقتها
ورشاقتها ، ولا يعقل أن تستخدم مثل هذه المحلات امرأة
حكيمة كهذه لتعمل بائعة ، بل الحقيقة انها غسالة كانت تتردد
على مصنع الملابس لتغسل الأقمشة قبل التفصيل كلما كانت
هناك حاجة الى ذلك ..

وتوقف المحامي البدين عن الكلام ريثما يخفف عرقه
المنصبب ، وابتلع رشفة ماء من الكوب الموضوعة على المنصة
التي أمامه ثم واصل مرافقته قائلا :

- نعم يا حضرة القاضي ، لا يعقل أبدا أن تستخدم محلات
روبري امرأة جاهلة محطمة عجوز في المصبعين من عصرها
كبائعة ..

وقاطعته أم زهرة على الفور :

- سبعين سنة إيه ، أنا عندي ٥٠ سنة وحياة شرفك يابيه
غريش الى شلتناه من صغرتنا ..

ولم ينتفت المحامي الى قولها .. بل مضى مستأنفا
مرافقته بنفس الحماس الشديد محاولا جهده أن يبدو رشيقا
خلال المرافعة وكأنه بطل مسرحي يتألق في دور عظيم ..

- ولكي أبين لسعادتكم معنى كذب هذه المرأة أطلب من
من المحكمة أن تأذن لي بتوجيه بعض الأسئلة الى المدعية .
وعن القاضي رأسه في عدوه وقال بصوت خفيض :

- اتفضل ..

وهنا اعتدل المحامي في وقفته حيث أصبح مواجهها تماما
لأم زهرة ، وبعد أن أصلح من رباط عنقه وياقة جاكته سال
المرأة التي يبت مذعورة كارتب صغير :

- هل تعرفين الفرنسية ؟

- فرسويه ايه ؟

- هل تعرفين الانجليزية ؟

- أنا ياخويا متيس عارفه انت بتقول ايه ؟ أنا لا اعرف حد
ولا ليه دعوة بحد ، صمه قالولي انت مرفودة كنت باخد 15
قرش في اليوم ..

ثم التفتت الى القاضي من جديد وقالت وحياء شرفك ياايه
اننا مظلومة ..

وارتفع صوت المحامي من جديد يغتلب في نبرات قوية
وبالفاظ متنتقة :

- يا سيدى القاضي .. اردت من وراء أسنثلى لهذه المرأة
ان أثبت لكم بالدليل القاطع مدى جهلها، فهي لا تعرف حرفا
من الفرنسية أو الانجليزية وهذا دليل ساطع على أنها كانت
غسالة وليست بائعة ومن هنا ترون حضراتكم أن الدعوة
لا محل لها وان المحكمة ليست مختصة بتظرها . لأن المدعية
لا تخضع لبنود قانون عقد العمل الفردى ، فهي غسالة تعمل
حسب الطلب ، وليست بموعد معين أو أجر معين .

وعندما وصل المحامي البدن الى هذا الحد من المرافعة كان
جسده كله يرتعش ، ووجهه تتقلص عضلاته ثم تنفجر ،
وصدره يعلو ويهبط ، وعرقه تبرز متفتحة بالدماء التي
تندفق حمراء نقية داخلها . ثم بدأ صوته يعلو أكثر ، ويناد
تتحركان فى الفضاء تشرح مفهوم الكلمات ومعناها ..

- يا حضرات الفضاء ، ان العدالة تقتضى رفض الدعوى
وتلقين مثل هؤلاء الاثاقين درسا لا ينسوته ، ان الحواجا وروبر
رجل شريف لا يسمح له ضميره الحى ، ولا تاريخه الناصع
بان يأكل أجر عامل من عماله ، ولكن هذه المرأة ليست عاملة
عنده ، ولا هي شئ على الاطلاق ، بل هي غسالة غشاشة
مدلسة تريد أن تحصل على المال ولو بالكذب والخداع .
كان الحساس الشديد الشبيه بالحساس الذى يسيطر على

جندى خلال المعركة يسيطر على المحامي البدن كان يترافع
وكانه خطيب عهد اليه بمهمة اثاره الجماهير نحو عمل عظيم
كان يتكلم بايمان واصهب يدعو الناس الى الرجوع لحظيرة الدين ،
وبحماس زعيم يدعو الناس الى الثورة ، وعندما انتهى كان
العرق يغطي وجهه ويغطي يديه ويبلل المتبدل الذى يتعلم من
بين أصابعه ..

وعندما صمت أخيرا تطلق القاضي فى هدوءه العيود :

- الحكم آخر الجلسة ..

وأخرجت أم زهرة تتعثر فى طرف ملامتها وعندما أصبحت
خارج القاعة سألت العسكرى الذى يقف عند الباب :

- هو الحكم ايه والنبي يابنى ؟

- لسه آخر الجلسة ..

فمضت تقطع الردهة الضيقة المعتمة . ومن خلفها خرج
المحامي يدب على الأرض بأقدامه القوية ، ويده تصمخ وجهه
بالمندبل المعطر ، ورأسه مرفوعة الى أعلا فى زهو شديد
وكانه قائد مشهور انتصر فى معركة خالصة ..

وعندما اصطدم بأم زهرة فى نياية الردهة نظر اليها فى
استنكار ورعب وكبرياء ، ثم انحرف بعيدا عنها .. ومضى !



يخرب بيت الذين تصحوك يارشوان بركوب المركب ، لقد
لقد انهض حيلك وانقطع قلبك ، وستموت حتما قبل أن تصل
الى مصر ، ولو فعلت كما أوحى لك تدبيرك وعقلك لكنت الآن
فى الطريق الى مصر خفيفا على قدميك ، ولما كانت الحبال قد
أدعت كتفك وعنقك وأنت مربوط فيها طول النهار كأنك قرد ،
والمركب من خلفك ، ومن فوق المركب آلاف البلابيص ومن

فوق البلابيص عشرة رجال يملكون المركب ولا يتحرك رجل
منهم ليثمد البیان قليلا يارشوان ..
وزفر رشوان زفرة حارة وهو ممدد كالفسيخة على ظهر
المركب ينظر فى نجوم السماء ، ومياه النيل ساكنة متموجة
فى رفق ، ولا تسمه هواء ويبعد انها لن تكون وسيشد البیان
فى الصباح كما شده كل يوم منذ شهر ، ورفع رشوان يده
التي أدهاها الحبل يتحسس عظامه التي تحطمت وعروق رقبته
التي برزت وانفتحت وأصبح لونها أزرق من التيلة .. انه الآن
فى بيتى سويف وبعد خمسة أيام سيصبح فى مصر ولكن من
يدرى ، فقد لا يصل الى مصر أبدا انه يحس الآن احساسا
صادقا تابعا من جروحه التي تقيحت ، انه سيמות فى الطريق
وسيدفن فى قبور ميجورة ميجولة كالكلب ، والله يتكذ على
صالح فهو انذى أشار عليه بهذه المشورة الثمينة وأكد له أنه
لن يشد البیان أكثر من يوم .. وربما يومين وأحسن رشوان
بحركة غريبة من خلفه فاستندار بعنقه لوى من هناك ، ولم
يكن هناك سوى الرئيس سليم الذي يملك أكبر حصاة فى
الراكب ، وكان يتأهب للصلاة ، فرش جلبابه ناحية القبلة ،
ثم بسمل ورفع يديه نحو رأسه ، ولكنه فجأة أحس برشوان
يتقلب على ظهر المركب كالمسكة فسأله فى استنكار :
- جاعد كده ليه يارشوان ، عما تفكر فى ايه ؟
- فى حال الدنيا ..
- ومالها الدنيا ماهى عال ..
- عال جوى عشان ماتت جاعد زى البلاص طول النهار ،
وأنا عما اشد فى البیان لما انهض حيلى ..
عجائب ياخوانا على رجالة اليومين دول .. دى رجالة ورج
.. وهلل الرئيس سليم وكبير واستغرق فى الصلاة ، ومرت
على ذهن رشوان كل ذكريات الأيام المريرة التي عاشها فى
النهر على ظهر المركب ولا عمل له الا شد البیان ، فهو فى
حاجة فعلا الى السفر الى مصر ، بعد ان وصله خطاب يقبضه
بضرورة الحضور للعمل فى شليش الحصار بروض الفرج ،
وكانت أمنية رشوان الوحيدة أن يجد عملا فى مصر ولو من
غير أجر ، فهو يعلم أن زيدان وعبد المعبود بدأوا حياتهم فى

التشليش بوجبات اليوم ثم أصبحوا بعد ذلك معلمين كبارا وأصحاب أطيان ، وهو لا يجه كيف يبدأ المهم أن يحدد ما يبدأ به ، ولكن المشكلة كانت في الطريقة التي يسافر بها الى مصر وهو لا يملك تقودا ولا يستطيع أن يقتصر على فكر رشوان بعمق ثم قرر في النهاية أن يرحل الى مصر مشيا على قدميه ، فكرة وليس أمامه حواها ، وهو لن يقدم وسيلة ليحدد غذائه وشمس الدخان على طول الطريق ، ولكن صالح وجد له حلا للمشكلة : لماذا لا يركب مركبا الى مصر ولن يقدم شيئا ، ولكنهم سيطلبون منه أحيانا أن يشد اللبان عندما تكون الريح هادئة والمركب عاجزة عن السير في مجرى النهر .. وصالح نفسه جرب عدة من قبل ، ودخلت الفكرة رأس رشوان وهو قوى ويستطيع شد المركب عندما تهدأ الريح .. وصلى لا تهدأ الا يوما وربما يومين ، وذهب رشوان الى النهر ، وساموم واتفق وجات قرعته في مركب الرئيس سليم .

وكانت الريح عظيمة نشسطة ، والمركب تسير كالوتش ولا حاجة هناك لشد اللبان ، خمسة أيام فقط ثم هدأت الريح تماما وكانها ماتت .. وجاء الدور على رشوان ليجرها بدل الريح ، وهكذا ربط نفسه في الجبل وغاص في الطين عند حرف النهر وهيلا هوب والمركب تنهاتى من خلفه ومن فوقها البلايص ومن فوق البلايص عشرة رجال ، ومضى يوم ويومين وأسبوع والريح يبدو أنها لن تبعت من جديد .. ولو واحد فقط من الذين على ظهر المركب يشد اللبان ليوم واحد يستريح فيه رشوان اذن قصار قادرا على التمسك أيدى الدهر ، ولكنهم جميعا يرفضون .. انهم أصحاب المركب ، كل منهم له حصة ، ثم ان الاتفاق حدث بينهم وارتضاه رشوان ولم يجبره أحد على أن يقبله .. وفي الأمسيات التي كان يسيرها رشوان مع الرجال العشرة كان أحيانا تنور على الوضع الذي انتهى اليه الحال على ظهر المركب ، وكان يصرخ فيهم محتجا ..

• هو ما فيش عدل

• كلام ايه ده الي انت بتجوله ؟

• هو ما فيش رجاله ثاني تشد

• ماهوه انت الي رضيت ، كان حد ضربك على جفاك ؟
 • طيب ومسيدى عبد الرحيم الماشى بقوة وسأيب المركب •
 • مع السلام ياخي ، انت حششاركتنا ولكنه كان يعجز دائما عن تنفيذ وعيده ، انه لا يستطيع أن يغادر المركب ، لقد شد اللبان أكثر من أسبوعين فكيف يتركها اذن وقد تهب الريح فجأة فيستريح ، ثم هي لابد أن تهب حتى لا يفتقر الوقت وتضيق الشفلة .. ولو ضاعت اذن مات جوعا في مصر ، وماتت الأولاد في الصعيد • ولكن الريح ظلت ميتة حتى وصل المركب الى أسيوط .. ونامت بعد ذلك بجوار الشاطئ خمسة أيام كاملة ولم يغادرها رشوان أبدا كان مشغولا عن النزول الى البر بجروحه وهمومه وتفكيره الدائم في الشفلة وفي الأولاد ، وفي عيد المعبود وزيدان وصابو الذين أصبحوا بتكره وأصحاب أطيان .. ثم جاءت الريح بعد ذلك واتزلقت المركب في الطريق الى مصر ، واستطاع رشوان أن يهدأ وأن يطيب جروحه ، وأصبح قادرا على الحركة وعلى المشى .. وأحيانا كان ينزل الى البر عند القرى التي تقف عليها المركب فيطوف في داخلها يشاهد معالمها •
 ان الجو بعد أسيوط أرق منه في داخل الصعيد ، والحيز هنا أكثر والناس أنفط وأغنى ، والنساء أجمل ولونهن أفتح من اللاني في الصعيد .. لابد أن النساء في مصر يشسبين الحواجب السواح اللاني يغفن الى الصعيد في الشتاء ، وياخوابك يارشوان لو وقعت في واحدة متين ، عندها مال قارون ، وععارات مثل عيد المعبود ، وعيطان مثل زيدان ، ياخوابك يارشوان لو حدثت في بالك ، ولماذا لا يحدث ؟ والواد الترحمان العدمان ضمويل ماتت في دوايديه حواجبية من أمريكا ، وأصبح صمويل العدمان من أعيان أسوان وابتسم رشوان وهو يتخيل نفسه في الجبة الجوخ والفتنظان الحريري والصصايا الكريز والجوز الاجلسيه ، والحواتم النهبية في اصابعه والالسة الكشمير على كتفيه ، والعيال في الصعيد سينفذ لهم كل شهر مائة جنيه ، بل تكفى عشرة • أحلام جميلة قد تتحقق ، ولكن لو تهب الريح فتدفع المركب الى مصر قبل أن تطير الشفلانة وهو يعلم أن العاطلين في مصر أكثر

من البلبايلص في الصعيد ، ولكن الريح تموت مرة أخرى عند
المنيا ، وهات ياشند .. ويثن رشوان ويتوجع ولا يجيب وقد
استطاع أن يصل بالركب الى بني سويف ، وأمامه الآن
خمس أمم لو عبت الريح والريح كانت دائما تهب قبل أن
يركب هو المركب .. ولكن لماذا ركب هو في بؤونة .. انه سوء
الحظ .. وكان من الممكن أن يستمر رشوان في شد اللبان لولا
زحاجة كبيرة مشطورة نصفين دخلت في رجله فقطعنها وتزف دمه
كأنه يسيل من حنفيه ..

وأحسن رشوان بهبوط في قواء . فنام على ظهر المركب
وقد حشا الجرح المفتوح طينا وترابا ولعه بخرقه وجدسا عند
الشاطئ ، وراح يزوم كالكلب المصاب ، والجرح يزداد ألما ،
والحمى التي كانت في ساقه الجريحة شملت جسمه كله .
وراح رشوان في غيبوبة .. يتذكر أم عياله التي تركها
بلا قرش ، وعباله الصغار والتمسطة التي في الشلش ،
والشمورة المهيبة التي أشار بها صالح والتي لولاها لكان الآن
يسير على قنميه خفيفا كالفراشة نحو مصر . ولم يدر رشوان
وهو في الغيبوبة ان الريح قد عبت قوية رغم بؤونة ، وان
المركب تنزلق بسرعة مع التيار وأنه قد أصبح في مديرية
الجزيرة ، وفي الصباح سيكون في مصر . لم يدر بشئ من
هذا كله ، فقد كانت الحمى تأكله ، وتأكل وعيه ، فكان لا يرى
الا الماء ولا يذكر الا شد اللبان الذي جاء بخبره . وفي الليل
حلم رشوان ، أحلاما مزعجة وهزى بكلام كثير حتى أن الرجال
أصحاب المركب أيقنوا أنه سيموت فالتفتوا حوله ، يبثلون
جيبته بالماء البارد ويقرأون حوله بعض الآيات ..

وعندما جاء لصباح كانت المركب قد بدأت في رحلتها مع
التيار منذ العجر ، وكانت الشمس تقف عالية ناحية الشرق
ورشوان ممدد مكانه على ظهر المركب فاتحا عينيه وقد زالت
عنه وطأة الحمى القاسية التي استلبت به . وتهض في تناقل
وقد تأكد ان المركب تجرى وأن الريح تهب قوية نشطة .
والتيار يدفع بالركب سريعا نحو مصر . وعندما رأى على
الشاطئين المعدنين سرايات جميلة وسيارات تسابق الريح
تأكد انه أصبح في مصر فاستدار الى الناحية الأخرى مدققا

النظر في معالم الطريق الذي ينتحر فيه . وعندما رفع بصره
أمامه اشرق وجه الكائح ، وارتسمت ابتسامة عريضة على
شفتيه . كان كوبرى عباس يقف على بعد قليل يسند مجرى
النهر وكأنه حارس عنيد . وجلس رشوان مكانه وهو يشكر
الله على أن نجاه من موت أكيد . وعندما اندفعت المركب أسفل
الكوبرى في طريقها الى روض الفرج طاف بخياله عيد المعبود
وزيدان وصمويل الترجمان الذي أصبح بتكبرا ومن اعيان
أسوان ..

خوخة السعدان ..



وراحت شوشو من ميدان السيدة زينب تخترق الأزقة
والحواري ، وتسال بعد كل خطوة عن خوخة السعدان • وهي
على طول الطريق ترمقها ألف عين نصف نائمة تصف يقظانة ،
يتمنى أصحابها في كسل لذيذ وفي شمس الشتاء على المقاصي
الكثيرة المتراسة بجوار بعضها على الطريق وأحست شوشو
بالضنى وأحست بالتعب وتمنت لو استطاعت أن تعود من
حيث جات بعيدا عن عصفه الحارث التي تفوح منها رائحة
كريمة ، وكأنها رائحة خنزير مذبوح !! ولكن ماذا يقول
عنها بابا وماما وكل اخوتها وقد تحدثهم جميعا ، وأصرت أن
تسير وحدها حتى نهاية الشوط •• نعم ماذا يقول كل هؤلاء
لو انها تكصت على عقيبها وعادت الى قصر أبيها من جديد
ولكن لو أن هؤلاء الناس المنبطلين الحاملين لم يسددوا إليها
نظراتهم وكأنها رصاصات مدفع رشاش تخترق كل مكان في
جسدها اللين الجميل ••

ترى ما السبب الذي يجعلهم ينظرون إليها وكأنهم جوعى
أمام وليمة فاخرة رفع الغطاء عنها فجأة وبلا تدبير !
ألم يسبق لهم أن رأوا نساء ؟ ألم يست لهم زوجات وبنات
وصديقات •• وربما خيلات أيضا ••
ولكن أليس هؤلاء هم الفقراء التي وطلت العزم على خدمتهم
والدفاع عنهم وانسير على مصالحهم ، وهذه الرحلة الطويلة
الشاقة التي تقطعها الآن في سبيل رفع مستواهم وانتشالهم
من الحضيض الذي يعيشون فيه •

وتوقف عقل شوشو قليلا عن التفكير وفركت بأصابعها
الحنيلة المدبة الورقة المطوية المعطرة التي كانت تنام مستريحة
في راحة يدها • واستوقفت رجلا كان يعبر الطريق • وألقت
نظرة على الورقة ثم سألت المعلم المعلم •• وتنهت ببطء قبل
أن تسأله عن خوخة السعدان ، وقطب الرجل جيبه ، وضيق
ما بين عنتيه ورفع سبابته وضربها في أنفه ، ثملقى نظرة
طويلة فاحصة على الست المليين التي تقف أمامه كآلهة من آلهة
الجمال ثم قال في صوته :

— خوخة السعدان ••

وردت شوشو في ضيق شديد •

وعاد الرجل ينكش بسياسته في شعر رأسه ثم في فتحة منخاره ، ثم تنى إحدى ركبتيه وكأنه على وشك الجري في سباق عتيق ، وقال في نفس هدوته المعهود .

- اللهم صلي على كامل النور ، بقي خوخة السعدان على طول كده ، وبعدين تكسرى على ايديك اليمين كده ، وتمشي على طول لما تلاقى قهوة قدامها تلاجة ، تيجي كسرة شمال ، وبعد شوية يصادفك جامع ، وهناك بالصللا على النيس تسألني عن خوخة السعدان .. آلف واحد يدلك ..

ولم نقيم شوشو حرفا مما قال ، وعادت تواصل رحلتها المضنية الى حيث أشار الرجل المغمم الكريه ..

ووقع نظرها على عتشن مهدمة ، وبرك طين يسبح فيها الكلاب واستامت شوشو لكل هذا الفقر المحيط بها . وتمنت لو تمش على حل سليم للقضاء على كل ما في هذا الحى من فقر . وتمنت لو انها تملك ملايين كثيرة ، اذن لتبرعت بالآف عديدة ، لتشتري لهؤلاء الناس صابونا وجازا وخبزنا وسيارة لتنقل أطفالهم الى المدارس ، وأجهزة راديو ، وأسطوانات لموزارت وبيتهوفن ورمسكى كورسكوف . آه لو استمع هؤلاء الفقراء الى موسيقى كورسكوف اذن لارتقت أحوالهم ، وتغيرت معالم حياتهم ولاصبحوا خلقا جديدا !!

وتأعت شوشو قليلا عن الفقر الذى خلفها ، والفقر الذى أعامها ، والطين الذى يطلخ كل شيء في الشوارع الضيق المتلوى وكأنه بداية طريق يؤدى الى القابر ..

وسرح عقل شوشو في الكلب الذى خدعها والذى وعدنا بالزواج ، كانت تظنه رجلا ، وكانت حيثته تدل على أنه رجل فعلا ، حيثته الطويلة العريضة ، كلامه العسول ، شواربه الأصفر الجميل ، عضلاته الفتولة ، قلبه الذى لا يخشى مواجهة الأسود . ولكن كل هذا تبخر في لحظة .. وبدأ لها في توبه الحقيقى ، عاطل مفلس جبان ، وحيثته الجميلة هي كل مهنته هي الحياة !!

وانحدرت عبرة على خد شوشو ، ولكنها سرعان ما تداركت نفسها ، فراحت من جديد تنظر الى الناس ، والى الميطان ،

والى الأطلاق والكلاب . واقتحم سمعها كلام غريب يطلقه الناس بلا استحياء .. ويقصدون به التحية والسلام . كلام لم تسمع مثله من قبل وأوصاف تكاد تجعلها تضرب رأسها في الحائط . هؤلاء الفقراء ليسوا مؤذيين ، لو أنهم دخلوا مدارس أجنبية لذن لتعلموا الذوق ولفهموا معنى الاتكيت . وبإسلام ياشوشو لقد صبط الحى السليم الذى كانت ترجوه .

ولیکن حل المشكلة من هنا .. من المدارس الأجنبية . فانها لاقت وسيلة لاقتاع هؤلاء الناس بضرورة الالتحاق بالمدارس الأجنبية ، اذن تضمنت تخريج جيل جديد من هؤلاء الفقراء يعرف كيف يتحدث وكيف يأكل ، وكيف يحب وكيف يتصرف برشاقة .. وعندئذ سوف تصفو لهم الحياة ..

واستيقظت شوشو من أحلامها على حائط عريض يسسد الطريق . واحتارت من أين تنفذ .. لا بد انها ضلت الطريق . وسألت شوشو حتى علمت انها لم تضل وكان عليها أن تخنى حامتها الرشيقه لتعلم من تقب في الجدار يوصلها الى خوخة السعدان ، وانجنت شوشو ومرت من الجدار . وتمزق جوربها الخريير الطبيعي واتسخ معطفها الغرو ، ولكن ماذا يهم .. مادام كل هذا في سبيل الفقراء !

وامتلا قلب شوشو بالخوف عندما هلت على خوخة السعدان ليس هذا المكان بشوارع ، ولا بحارة ، ولا بزقاق ، الوصف الصادق له انه حرم في الحى ، وحل من المعقول أن أحدا من الأحياء يعيش في هذا المكان ؟ ..

وسألت شوشو ودلها أولاد الحلال على المكان الذى تريده . ومضت من جديد عبر الخوخة تفكر في الحالة النفسية الرهيبة التى ظلت تعانيتها عاما كاملا بعد أن فر من يدها العاطل الجبان كم مرة فكرت فى الانتحار ، وكم مرة فكرت فى دخول العدير ، وكم مرة بكت وبللت ساداتها بالدموع ، لقد فر الجبان ومعها شيء عزيز كان من الواجب أن تحرس عليه ، ولكنها لم تبك من أجل هذا ، كان السبب في بكتها خيرا حسدا النذل نفسه ، فكم أحبه قلبها الصغير .. ولكنها أخيرا عرفت الطريق الى السلوى والى النسيان . ليس هناك من ميدان تستطيع

أن تسلو فيه أحزانك الا ميدان خدمة الفقراء . وهي ترجو أن توفق وترجو أن تتجمع في الوصول الى حل سريع . انها واثقة من الفوز . لقد تحدثت أسرتها وتحدثت رئيسة جمعية سيدات المجتمع ، وستتيت لهم جميعا أنهم كانوا على خطأ . . . وهي وحدها التي كانت على صواب . انها لا تنسى أبدا حديث بابا عندما همست له برغبتي في خدمة الفقراء .

– حزلاً، الفقراء كلاب ، لا يخدمون الله أبدا ، وإذا شعبوا تمردوا . . . ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من شقاء . . . ولكن شوشو لم تصدق بابا أبدا ، فمن الممكن جدا أن يتصلح حال هؤلاء الفقراء . . . فقط لو وجدوا واحدة تفهم الحياة ، وليس مثل شوشو من يفهم الحياة !

واستراحت شوشو من عقلها الباطن ، فقد وصلت أخيرا الى المكان الذي تصده في خوخة السعدان . . .

وسألت عن محمد كباره ، وقادها طفلاً عار تماما الى مكانه . رجل مهمد رغم أنه في الخامسة والثلاثين ، يلف رأسه بخوذة بالية لا لون لها ، وجلباب تزينه الثقوب ، يجلس على الأرض والى جواره كوز من الصفيح يتصاعد من داخله بخار ويتراجع في أعماقه شيء أسود اللون لا يد أنه شيء ، أو ربما هو هذا الشيء الذي تسمع به . . . وأندى يسميه الناس . . . المشيش ! ووقفت أمامه برهة تنظر اليه ثم الى الورقة المطوية ، وبدأ من منظر كيارة انه لم يفاعا بمنظرها . . . فقد كان وجهه جامدا وكأنه نائم في مكانه هذا منذ عام . وسألته شوشو برفق :
– انت الأستاذ محمد كيارة ؟

وضحك كيارة ضحكة مينة . . . ولكنها ساخرة :

– هاؤ . . . قال استاذ . . . ليه شايقاني لابس عمه . أيوه أنا كيارة . أيه فيه حاجة انسرقت منك انت رخود . حكومة انت . . .

وارتفعت شوشو جسدا ، واقشعر بدنها لهذه البداية السيئة ، ولكنها تماثلت نفسها . . . فهي تجربة على أية حال . ومن يتصلدى للخدمة العامة يب أن يكون مسلحا بالصبر والايامن . . . حكمة جميلة قرأتها شوشو في كتاب !! وفكرت شوشو في طريقة أخرى ترضى كيارة وتبدأ بها

الحديث ، ولكن كيارة نفسه كان لا يزال يملأ الدنيا صراخا وسبائيا ، والفاظا يكاد شعر شوشو أن يقف من هولها !! وحاولت شوشو جاهدة أن تبتدئه . ولكنها لم تكذب تبدا حتى برزت امرأة عجوز من حجر خلفها وفي يدها فردة شيشب ، ولسانها يطرقع في الهواء كالسوط . . . تسب الدين والدنيا وكيارة وكل الناس !! . . . وانتهالت المرأة العجوز على كيارة بالشيشب . وظل كيارة يصيح ويشتم ويسب صو

الأخر دون أن يتحرك من مكانه ، ورفجت شوشو بشسلة كبيرة من الرجال والنساء والأطفال يلتفون حولها . . . أكثرهم يتفرج . . . وقلة قليلة تحاول قض المشكلة . وفهمت شوشو خلال هذا كله أن الذي جرى أمامها منذ لحظة لم يكن الا حلقة واحدة من سلسلة طويلة بدأت منذ الصباح الباكر بين كيارة والمرأة العجوز . والسبب ان المرأة افتقدت صفيحة قديمة كانت لديها ، فلما لم تجدتها اهتمت كيارة بسرقتها . . . وأهل الخوخة جميعا يؤكدون أنها صادقة .

وعندما علمت شوشو بالحكاية كلها ، حاولت أن تتدخل لعقد صلح بين الرجل الذي جاءت تبحث حالته . . . والمرأة التي ليس لها من صفات المرأة الا الاسم فقط . . . حتى ملابسها نفسها كانت رجالي . . . وكانت ممزقة !!

وقالت شوشو وهي تحاول – صادقة – قض المشكلة :
– يا جماعة بسيطة . . . لازم كلنا تحب بعض . . .
ولكن صوتا مازحا جاءها من الخلف من آخر الحلقة المضروبة حولها :

– كلنا تحب القمر . . . والقمر . . . هاؤ . . . يا خرابي يا جدعان . . . أموت أنا !

وضحك الجميع . . . حتى المرأة العجوز صاحبة الصفيحة تقصعت وتمأيلت . . . وقالت بصوت مرتفع :

– آل تحب بعض . ياختي بلا نبلة !!
وانفض السامر . . . كل الي وجهته . . . وبقي بعض الناس ملتفتين حول شوشو . . . وكأنها مخلوق عجيب يتفرجون عليه لأول مرة . . .

ودارت شوشو بنظراتها تتفحص الذين من حولها . الشيء

العجيب الذي حرها أن الجميع كانوا يقبضون كيارة ، وكانتهم
أخوته من أب وأم ، وعندما نظرت شوشو الى كيارة .. خطر
لها أن تجرى وتفر . فقد كانت عروقه بارزة ، والزيد يغطي
شفتيه ، وعيناه جاحظتان ، وهو ينظم خدوده بين الحين والحين ،
وينفخ من شدة البؤس والضجر ..

وسألت شوشو واحدا من الذين يلتفون حولها عما به ..
وجامها الجواب بسرعة من أكثر من واحد :

- أصل الأسياد ماسكينو ..

ولم تفهم شوشو شيئا .. فقالت في برائة طيبة :

- أسياد ايه ؟

وجامها الجواب .. وفي الصوت رنة استنكار :

- أسيادنا اللي تحت الأرض ..

وسرت رعدة في جسد شوشو ، ولم تدرك ماذا تقول ..
وأخرجها من رطبتها واحدا من بين الملتفتين حولها .. كان يبدو
انه أكبرهم سنا ، وأيسرهم حالا كذلك ، فقد كان ممسكا
برغيف يقضمه ، سألتها الرجل في ود عميق :

- الست عاوزة حاجة منه ؟

وأجابت شوشو على الفور .. وبلهجة املائية كأنها

تلقي قطعة محفوظات :

- أنا مندوبة جمعية سينمات المجتمع ، وجايه ابحت حالته

عشان نساعده ..

وقال الرجل الاثيب العجوز في نفس الود العميق :

- اهلا وسهلا .. يا الف مرحب ..

ثم التفت الى كيارة ، ولكره باطراف اصابع قدمه :

- ياواد يا كيارة .. قوم اتكلم مع الست .. عاوزة تساعدك

ولكن كيارة لم يرد ولم يتحرك .. فزق الرجل العجوز

في وجهه :

- قوم يا شيخ جتك نبيلة .. حد يطول ..

وأخيرا رد كيارة في صوت أجس :

- ايه .. عاوزين مني ايه ؟

وهمست شوشو في صوت لبن حنون وكأنها تردد اغنية :

- بس .. كنت عاوزة امالك كام سؤال ..

ورد كيارة على الفور حسده المرة .. دون أن يرفع بصره
اليها :

- أي خدمة ؟ ..

- وسكت برهة ثم أردف على الفور :

- أنا موش حرامي .. أنا أشرف واحد هنا .. آل صفيحة

آل ..

وقالت شوشو :

- انت .. حضرتك اسمك ايه ؟

- محمد .. زقت .. كيارة

- وعندك كام سنة يا سي كيارة ؟

- أي حاجة .. أنا يعني كان عقلي دفتر ..

ورأت شوشو أن تنفذي الثورة .. فقالت على الفور :

- طيب معشوش .. انت مؤهلانك ايه ؟ ..

ورفع كيارة بصره لأول مرة .. وابتسم ابتسامة بدت

- رغم فقره وقذارته - في حالة ليست جميلة ، ولكنها أيضا

ليست بشعة مثل منظره .. وأجاب على استنحياء :

- أنا لسه ما تأهلتنس ..

ثم عاد الى طبيعته الأولى .. وأكمل حديثه بعصبية حادة :

- أنا لاقى آكل .. أما أهمل ..

ولم تفهم شوشو شيئا .. ولكنها رأت أيضا أن تنفذي

كل ما من شأنه أن يعكر هدوء الموقف .. فسألته :

- طيب .. ويتشتغل ايه ؟

وقال كيارة :

- أشتغل ايه ؟ .. حلوه دي .. اعبي شمس في ازاي

آل .. شغليني اتنى .. شغليني ريس أو أي حاجة ..

حلوه دي ..

- أمال عايش ازاي ياسي كيارة ؟

- عايش على الله وع الست ..

وبانت الدهشة على وجه شوشو فسألته مستنكرة :

- ست مين ؟

وكانما استفزها هذا السؤال ، فتجهج وجهه .. وبدا شريرا

كوجه غول .. وأجاب متحمدا :

- انتي كمان موش مصدقة .. اساليهم .. يقولك الست ..
انا مخاوي ست جتية من تحت الارض .. اجدع ست
جتية من تحت الارض .. اجدع ست ، وطيبية ومسلمة زي
حضرتك بالضيظ ..

وسكت كبراة قليلا ، وهدق ببصره في وجه شوشو قبل
ان يضيف قائلا :

- ايه موش مصدقاني ؟!

وانترزعت شوشو مندبيلها الحريري المعطر من حقيبتها ،
وراحت تمسح به العرق الذي أخذ ينهمر من جبهتها على
عينيها ، واجابته وهي خائفة وجسدها كله يرتعد من منظره :
- مصدقك ..

واستنورد كبراة حديثه قائلا :

- اجدع ست والله .. بتطلعني هنا مرة كل شهر ..
تجيبلي كل حاجة ، ونستحمه سوا .. ربنا يخليها ..
كانت شوشو قد وصلت الى حالة قاسية من الابعاء ..
كانت تود لو ألقت بنفسها على الأرض وبكت الى ما لا نهاية ..
احسست انها ألقت بنفسها في حفرة مظلمة بشعة .. وهؤلاء
الفقرء الذين أمئت بهم وتمنت أن تخلصهم من شقاوتهم مجموعة
من اليرجوس الضارية .. جملة .. وحقي .. وأشرار ..
مثل أكلة لحوم البشر ، ورأت أن تنهى الحديث مع كبراة ..
فقالته له مطمئنة اياه على مستقبله :

- طيب يا كبراه .. احنا راح نساعدك ان شاء الله ..

ورد كبراة على الفور :

- امتي ؟!

- بعد يومين ثلاثة ان شاء الله ..

قالنها واستدارت لتصرف .. وافسح لها الناس الواقفون
ونظراتهم الحادة مصوبة نحوها .. وقبل أن تخطو خطوة قال
كبراة في جد ووقار هذه المرة :

- وحياتك تبقوا تساعدوا الست هيه كمان .. دي ست
طيبية قوى .. لما تشوفها راح تبسطي قوى .. هيه بتطلع
هنا مرة كل شهر .. ايوه .. فاضل أسبوع على ميعادها ..
وهزت شوشو رأسها موافقة .. واستدارت فأعطت الجميع

طهرها وسارت تقطع خوخة السعدان بخطوات مترنحة ..
ونفذت شوشو من الحرم الذي في الحائط فأتى على بقية الجورب
.. ولطخ الجزء التنظيف الباقي من الباطون الثمين .. وراحت
تحت الحصى في الشارع الضيق اللتوي نحو ميدان السيدة ..
حيث تنتظرها العربة الفارحة هناك ..

وعندما أطلت على الميدان الكبير ، استراحت نفسها واطمأنت
.. وعندما ذلقت داخل العربة .. ألقت بنفسها على الفور
معتبة منهوكة القوى .. وأمام عينيها الجميلتين صور كثيرة
غير واضحة .. صورة النذل الحقيير ، ووثيسة جمعية سيدات
المجتمع ، وكبراة ، وبابا .. ورنت في أذنيها كللسات بابا
المالدة : « هؤلاء الفقراء كلاب .. لا يحمدون الله أبدا ، واذا
شبعوا تتمردوا .. ومن الخير أن يبقوا على ما هم فيه من
شقاء .. »

وقبل أن تعير شوشو مفتاح العربة ، مدت يدها في خفة
وسمحت من تحتها كتابا أزرقا أنيقا .. وألقت نظرة على
الصفحة المفتوحة .. كانت هناك جملة تحتها خط باللون
الاحمر : « الذين يتصدون للخدعة العامة يجب أن يكونوا
مسلحين بالصرير والايهان .. »

ومدت شوشو أناملها الضميرة فطوت الكتاب وألقته في
القعد الخلفي ، وانطلقت بالعربة تسابق الريح ..
ومع الريح طارت الورقة التي كانت تحمل العنوان :
« خوخة السعدان .. محمد كبراه .. »

في جملته .. وكأنه عود حطب يابس وضعوا عليه جلبابا مزرقا
ليخيفوا به الغربان .. وراح الرجل يتحرك في بطنه شديد
نحو منصة القاضي ولكن في ثقة التي قطع الطريق نفسه من
قبل .. وقد حنى رأسه نحو الأرض مختلسا النظرات محسوب
الرجل البدين التي يقف الى يمين المنصة .

وفجأة ودون أن يرفع القاضي نظره عن الأوراق المنشورة
أمامه سأل الساعد الواقف أمامه في لهجة سريعة ، وكان
عناك وقت محدود لاستجوابه :

- اسمك ايه ؟ ..
- محمد ابراهيم ميروك ..
- وينفس السرعة المحمومة عاد القاضي يسأل :
- ويتستقل ايه ؟ ..
- تاجر .. من غير مؤاخنة ..
- وتعرف الست وجوزها ؟ ..
- أيوه يا فضيلة القاضي !! ..
- وإيه اللي تعرفه ؟ ..

وعند هذا الحد كان القاضي والشاهد يتبادلان الاستئلة
والاجوبة وكانهما يتبادلان اطلاق الرصاص ، ولكن الشاهد
غير من لهجته السريعة وراح يجيب هذه المرة بهدوء شديد .
- اصل انا ساكن قدامهم في نمرة ١٩ ، وكنت أشوقهم
دائما نازلين في بعض ضرب .. هوو يزقن .. وهي تديله
بالشيشب .. لحد ما الناس كلها اشتكت من الحال ده !! ..

- حال ايه ؟ ..
- حال الست يعني .. لانها غلطانة اما الاقننى وحياة
شرف سعادة القاضي طيب قوى زى السكره ..
وبدا على وجه القاضي انه غير موافق على هذا الحديث ..
فقال باشتراز :

- طيب وبعدين ؟ ..
- وبعدين بقى يعني من غير مؤاخنة الست تضربه
بالشيشب والاقننى حاجة تانية خالص .. زى الملاك .
وبدا كان اعصاب القاضي لم تحتل أكثر من صدا .
تصرخ محتاجا في الرجل العجوز :

الشاهد الأخير ..



كانت قاعة المحكمة الشرعية
قفرة ، وجدرانها متشققة ..
والأرض رطبة مبللة .. تنضح
برائحة خبيثة .. وبالرغم من
من ذلك كله كان منظر القاضي
رائعا وهو جالس على المنصة
أمام الحاضرين .. كان شيخا في
الحسين من عمره أشيب الشعر
مستدير الوجه نفخ الدمسم
وجنتيه وأسفل ذقنه ..

وكان يرتدى زيا جميلا يقطع نوع قماشه بالمستوى الرفيع
الذي يعيش فيه الشيخ ..
وكان صمت الحاضرين وتعلق ابصارهم به يضفي على الشيخ
وعلى جو المحكمة شيئا من الوقار والاحترام ، وعندما رفع
القاضي صرعه عن الأوراق التي تناثرت أمامه بدت عيناه
الصغيرتان الدعجوان تأخذ الشيخ يدور ببصره فيما حوله
مفتحنا وجوه الحاضرين ، ثم نظر الى محام شيخ يقف أمامه
وهمس في نبرة لطيفة :
ورد المحامي الشيخ وفي صوته ضراعة :

- آخر واحد يا فضيلة القاضي ..
وعندئذ أمر القاضي باستدعاء الشاهد الأخير محمد ابراهيم
ميروك ..

وعندما ارتفع صوت الحاجب يردد الاسم أكثر من مرة دخل
الى قاعة المحكمة شيخ في السبعين من عمره .. لا يستطيع
أن يرى أبعد من موطن قدميه وكان لون جلبابه يشهد بمنى
القدارة التي ترقد مطمئنة على جسد هذا الانسان الذي يبدو

- انت قلت الكلام ده قبل كده .. معيش حاجة جديدة ؟

- ما هو أنا بأقول الي حصل وشرف سعادتك ..

- طيب وبعدين ؟ ..

- وبعدين ايه ؟ ..

- يا سلام !! .. انت راح تشهد والا تعمل عيبط ؟ ..

- لا ياايه .. أنا واجل كبراة وربنا هوه الي يعلم !! ..

- طيب وبعده الست ماخذت العفش لعندي طلقها ؟ ..

- أمال .. طلقها !! ..

- الكلام ده حصل امتي ؟ ..

- كلام ايه ؟ ..

- استغفر الله .. حكاية الطلاق ..

- حصل من مدة ..

- مدة قد ايه يعني .. فى شهر ايه كان الكلام ده ؟ ..

- وراح الشاهد ينظر فى سقف المحكمة اللي كانت تغطي

مظلة من نسيج العنكبوت .. ثم قال بعد قليل :

- فى شهر جماد ...

- وجماد ده شهر ايه .. عربى .. ولا أفرنجى ؟ ..

- عربى ان شاء الله ؟ ..

- طيب كان موافق شهر ايه أفرنجى ؟ ..

- كان موافق يا سيدى .. شهر طوبة ..

وعند هذا الحد من المناقشة لم يكن الشهود قد اشرركوا

بعد - عليا - فى المعركة المحتدة بين القاضى والشاهد ولكنهم

عندما عتف الشاهد بإجابه الأخريرة ارتفعت صيحاتهم تجلجل

بالضحك فى أركان القاعة ، وبعد أن عاد الصمت يخيم على

جو المحكمة .. صاح القاضى مستنكرا :

- وطوبة ده شهر أفرنجى ؟ ..

وعتف العجوز فى ثقة :

- آه ..

- طيب عد الشهور الأفرنجى كده ؟ ..

وسكت الشيخ برهة قبل أن ينطق قائلا :

- أرسطس .. طوبة .. مارس .. يناير .. ربيع ..

وسرت فى أنحاء القاعة موجة من المرح ، وابتسم القاضى

فى سرور ..

ورتفعت ضحكات الحاضرين من جديد واستمرت بعض

الوقت ، وبعد أن انتهوا من ضحكهم .. أتى القاضى بحركة

برأسه تعفن عن فهمه مثل هذا النوع من الشهود ..

وتلملم الرجل الواقف الى اليمين فى مواجهة المنصة والغيفظ

يكاد يأكله ..

واعتمدت السيدة الواقفة الى اليسار ، وهى تضم اليها

ثلاثة أطفال صفار ..

وعاد القاضى يهتف من جديد موجها الحديث للشاهد :

- احنا وقفنا فىن يا ؟ ..

- عند الربيع يا سيدى ..

- أيوه الربيع .. الربيع ..

ثم أخذ القاضى بهز رأسه هزا عنيفا وقد اضطجع فى كرسيه

وراح يمشط شاربه بأصابعه وهو يتمتم :

- الربيع .. الربيع .. تعرف الربيع .. فصل الربيع يعنى

ورد الرجل النجيل العجوز ، وقد انكمش وتضائل وكانه

دخل فى جلده :

أيوه ..

- طيب قوللى يا سيدى الناس بتلبس ايه فى الربيع ؟ ..

ولم يتفق القاضى جوابا على سؤاله ..

وبدا على وجه الشاهد انه لم يفهم حرفا واحدا مما نطق

به القاضى ..

وعاد القاضى يسأل من جديد :

- الناس بتلبس ايه بأعم .. انت اسمعك ايه ؟ ..

- محمد ابراهيم ميروك ..

- أيوه يا عم ميروك .. بيلبسوا ايه فريسكا ولا صوف ؟

وصمت الرجل قليلا ، وكانه يفكر ثم قال بصوت خفيض :

- بيلبسوا حلبيه ..

ورنت ضحكة نسائية خليعة فى ركن من أركان المحكمة ..

جعلت الشيخ يهتف فوق كرسيه ، وهو ينقر تقسرات سريعة

بقلبه على المنصة ، ثم عاد الهدوء يلف القاعة ..

وابتسم القاضى قبل أن يسأل الشاهد من جديد :

- بقى بيلبسوا جلبية ؟ ..

- أيوه كده ، وحياة شرفك ..

- طيب يا عم ، وفى الربيع بيسافروا فين ؟ .. يعنى بيسافروا اسكندرية مثلا ، والا بوز سعيد ؟ ..
وهتف الشاهد على القور ، كأنه اكتشف سرا :
- اسكندرية ..
- متأكد ..

- وارتبك الشاهد ، واهتم بشدة وهو يجلس النظر نحو الرجل الواقف الى جواره ، ثم هتف ولسانه المضطرب يخرج من فمه بين الحين والحين :

- بور سعيد ..

- وأزاح القاضى عماهته الى الخلف قليلا وسأله فى هدوء :

- يعنى ما يروحوش أسبوط ؟ ..

- وأجاب الشاهد على القور :

- أسبوط !! ..

- وضحك الناس ..

وقام بعضهم من المقاعد الخلفية فاحتلوا مكانا فى الأماكن الامامية .. ودخل قوم غيرهم كانوا يقفون عند الباب فاحتلوا الأماكن الخلفية .. وازدحمت القاعة حتى لم يعد هناك موضع لتقدم وعندما هم محامى الزوج بأن يتحدث أشار عليه القاضى بأن يلزم الصمت ، وعاد يسأل الرجل المدعور كآرنب صغير مطارد :

- وأسيبوت دى فى أى حنة ؟ ..

- فى الصعيد ..

- طيب والصعيد فين ؟ ..

- وأشار الرجل الى الناحية الشرقية وقال :

- الناحية دى ..

وضح الجميع بالضحك ، وهتف القاضى مسرورا :

- مانا عارف ان الصعيد الناحية دى .. بقولك فين ..

- يعنى تبع مين ؟ ..

- وصمت الشاهد ولم يتكلم ، وتابع القاضى حديثه قائلا :

- تبع مصر .. طيب ومصر تبع مين ؟ ..

ورد الشاهد على القور :

- تبع ربنا .. كلنا تبع ربنا وفى ملكه ، ربنا يخليك ..

هو أغنى الاغنياء ..

وعندما ضحك الناس هذه المرة ضحك الشاهد معهم ..
وقرب منه .. فبدأ مهجورا واسمعا كصحراء ميجولة ، ثم ضرب يده فى فتحة جلبابه ، وراح يحك جنبه باظافره ، وتحت أبطه .. فنهزه القاضى بشمته ، ثم عاود الحديث معه ، ولكن بعد أن أمره برفع صوته ليتسكن الجميع من متابعة المناقشة :

- انت عندك كام سنة يا عم مبروك ؟ ..

- والله مانا عارف .. أيامنا ماكانش فيه حاجات زى

اليومين دول ..

- وساكن فين يا عم مبروك ؟ ..

- فى القلعة ..

- أمال ازاي بتقول ساكن قدامهم وهم قاعدين فى شبرا ؟

- واضطرب الشاهد قليلا .. ولم يلبث أن قال :

- ماهو أنا ساكن هنا وهما ..

- ايه .. بيت صفيى ، وبيت شتوى ..

- وابتسم الرجل ولم يتكلم ، واستنرد القاضى :

- بتسكت انت ماجيتش قدامى أول امبارح تشهد ؟ ..

- لا .. وحياة شرفك دنا على قد حالى ونظرى على قدى

.. ربنا يحفظ نظرك ..

- مش عيب تبقى راجل شايب وعاييب ..

- لا وشرفك .. أنا أعرف المشهور كلها والله .. بس

لا مؤاخدة .. الهيبة يعنى وحياة شرفك ..

وضجت المحكمة بالضحك ، وضحك معهم محامى الزوج لأول مرة ، وضحك الزوج كذلك حتى الزوجة البائسة انفجرت سفتاها عن ابتسامة باهتة ..
وأشار القاضى الى الشاهد بالخروج فاستندار الرجل وراح يرحف كالودعة فى الثمر الضيق الذى يفصل بين التساعد وأصابعه تتحرك تحت جلبابه ماسحة ظهره عرضا وطولا فى هرش رتيب .. وجلبابه يرحف على الأرض المبثلة ، وكانت أعناق الناس تتحرك مع الرجل فى نفس الاتجاه ، وعيونهم

سلطان الغرام ..

لم يبق في مقهى التوبة بشوارع
أبي السباع سوى ستة زبائن
فقط جلسوا متراسين في خمول
وعلى خط مستقيم على باب المقهى
ويموتهم جميعا مصوبة نحو أول
الشارع تتعقب النساء الجميلات
اللاتي يعبرن الطريق في دلال
وتقل عيون الرجال الستة
تتعقب كل امرأة حتى تغيب عند
المنحنى ..



فتعود العيون الى مكانها عند أول الشارع وكانها تعال بصغيرة
تترصد في انتظار فرسة تائهة . وكانت الحركة التي يتعقب
بها الرجال قوام الفائنات تقضي رتيبة هادئة وكانها تحدث
خطة موضوعة . وكانت كل فترة من هذه الفترات تنتهي
دائما باستنكار بالغ يعلنه عبد الرشيد أحد أفراد الجماعة :
- موش حاجة ، اسألوني أنا !!

ولم يتم أحد من الحاضرين باستنكار عبد الرشيد الذي كان
يديه في كل مرة ، ولم يحاول أحد منهم أن يسأله . وكان
هو أيضا يكتفي بهذا ، ثم يصوب بصره نحو أول الشارع كما
يفعل الآخرون .. ولكنه كان أحيانا ينشغل بعض الوقت
باصلاح وضع ساقه الخشبية الممتدة تحت ساقه السليمة على
بلاط المقهى المتآكل . والحق ان عبد الرشيد كان يسموا
للغاية ، أنف كبير في حجم عكازه ، وفم واسع ، وشفاة غليظة
بعض أطرافها متآكل ، وبشرة وجهه كالحلقة تغطيها الندوب
والبثور ، فضلا عن ساقه الخشبية ، ومهنته التي يحترقها كل
رواد مقهى التوبة .. فقد كان عبد الرشيد يبيع السكريرت

تسيعه حتى الباب وهي تتفرس فيه بدعشة .. وراح بعضهم
يبدى رأيه في الرجل بصراحة .. والكلمات تتناثر من كل
جانب .. نصاب شايب وعائب .. هم دول سبب الفساد .
وترددت في جنبات القاعة همسات تبدي رأيا في القاضي :
معلم .. وشاطر .. فاهم كويس .. ناصح .. عينه
مفتوحة ..

كان الرجل الشيخ يأخذ طريقه الى الخارج وهو لا يسمع
شيئا من هذا كله .. لم يكن يهجه رأى الناس فيه وكان الشيء
الذي يشغل ذهنه هو ضرورة الحصول على نصف جنيه ..
لقد تقاضى عشرة قروش من الزوج مقدم أتعابه ، وهو لا يدري
ان كان أحسن أو أخطأ ، وان كان سيستطيع الحصول على
بقية المبلغ المتفق عليه أم لا ؟ ..

وعندما أصبح الرجل خارج قاعة الجلسة انحرف ناحية
اليسار واختار له مكانا ليجلس بعد ان هدت المناقشة العامة
كياه وسلبته حيويته ..

ولم يضرب وقت طويل حتى خرج الزوج ، ومن خلفه
محاميه ، وكانت عصبيته البادية تدل على انه قد خسر القضية
وعندما وقع نظره على الرجل المجوز نظر اليه في استمزاز
واحتقار وصبغ في الغضاء في اتجاهه ، وانهم يكاد يتفجر من
عروق جبهته العريضة .. ولسانه يتحرك بسرعة بشتائم
لا حصر لها .. يا نصاب يا كذاب يا كلب .. عشرة صاغ
يا راجل يا غشاش .. ولم يلبث أن استدار على عقبيه وعضى
وعندما اختفى الزوج البدين ومن خلفه محاميه استند
الرجل المجوز ظهره الى الحائط وراح ينظر نظرات حائرة
بعينه المضطربتين . الى الافق البعيد ..

بالكويون . ورغم أن الآخرين كانوا من نفس الطبقة إلا أنهم في الحقيقة كانوا أحسن حالا منه بكثير ، فأحدهم قرائن في البنك ، والآخرون خدم في البيوت . وكانوا جميعا يشعرون في أعماقهم بالتفوق عليه . وكان هذا الشعور كافيًا لعدم اهتمامهم باستنكاره ، وبالتالي إلى عدم الاستفسار منه عما يعنيه .

غير أن فترة طويلة مضت عليهم دون أن تمر بهم مبيدة ، وشعر البعض بالملل فراخوا يهرشون وهم يتناهبون ، وراح البعض الآخر يتمطى في كسل لذيذ . وبقي عبد الرشيد وحده محتفظًا بهدوئه ، فلم تبه عليه بادرة ملل على الإطلاق !! وخطر لأحدهم أن يتسلى فثنى سياجته ، ورفعها إلى فمه ، وضغط عليها بأسنانه ، وحدث طويلًا في عبد الرشيد ، وسأله في تحدي :

– التسوان دول موش عاجيينك .. والا إيه ؟ ..

وعلى الفور أجاب عبد الرشيد في ثقة بالغة :

دول ؟ !! ولا حاجة ، اسألني أنا ، حاكم أنا برمت كثير ، دي كلها مناظر بس !!

وكانما بهرت الإجابة الحاطقة أسماع الأربعة الآخرين وكانوا حتى هذه اللحظة يستمعون إلى ما يدور بين عبد الرشيد وزميله في فتور ، فاعتدلوا وقد أصاحوا السمع في انتباه زائد ، وعيونهم تلمع ببريق غريب ، وواصل عبد الرشيد حديثه بنفس الثقة البالغة :

– حاكم أنا برمت ، ياما برمت ، وعشان كده المناظر دي ما يقتش تغرني قوي ، لأن الحاجات دي وردت على كثير !! ورد واحد من الجالسين ، وهو يقترب بكرسيه من مكان عبد الرشيد :

– زمان بقى الكلام ده .. والا إيه ؟ ..

– زمان .. ودلوقت !! أنا كنت أفضل سهران ليل ونهار ، وكانت الحريم دي غية عندي ، حريم فرنساوى مشيت معاه ، وانجليزى مشيت معاه ، تركى مشيت معاه ، كل الملل إلى ربنا خلقها ، ما خلقتي !!

واقترب الرجال الخمسة من عبد الرشيد ، وأحاطوا به في

شبه دائرة ، وصفق البعض طالبًا المشاريب لعبد الرشيد ، وغزم البعض الآخر بالسجائر عليه ، وسأله أحدهم في هدوء من يود الاعتناء إلى الحقيقة :

– وبذمتك يا عبد الرشيد ، أي صنف أحسن ؟ ..

وأجاب على الفور واحد من الجالسين :

– الحريم الفرنساوى ماقيش أحسن منهم ..

وقاطعه عبد الرشيد في حزم :

– أبدا ..

ثم أضاف بعد برهة :

– اسألني أنا ، حاكم أسأل مجرب ، ولا تسأل طبيب ..

وأجاب أحدهم :

– ياسلام ، أمال الصنف اللى عجيك إيه ؟ ..

وضيق عبد الرشيد عينيه ، وأرعش حاجبيه ، ووضع إبهامه في فمه ، وقال في همس مسموح ، وكأنه يلقي إليهم بسر خطير :

– بينى وبينك يعنى ؟ ..

ورد الجميع على الفور :

– آه !!

ومضت فترة صمت قصيرة قبل أن يقول عبد الرشيد :

– الحبشى !!

وهتف الجميع في صوت واحد :

– ياسلام ، بقى الصنف الحبشى أحسن صنف !

– آه .. ماقيش منه أبدا ، همه أجدع حريم ..

وفتح الرجال أفواههم ، ورفضوا حواجيبهم وبعضهم قبل الهواء بشفتيه ، ثم عدلوا عن جديد ، وراحوا يتساطون في نفس واحد :

– ياسلام .. وبين تاني ؟ ..

وعلى الفور أجاب عبد الرشيد :

– والرومي !!

ولكن أحدهم قاطعه مستنكرًا :

– الله ؟ .. جرا إيه يامعلم ، انت قلت ان الرومي زفت

زي الفرنساوى والانجليزى .

وارتبك عبد الرشيد قليلا ، لكتوبه تدارك موقفه على الفور
.. فقال في تودة وكأنه يشرح أمر غامض خطير :

- ما هو فيه اثنين رومي يابني آدم ، الرومي الي جنب
استكندرية ، وده صنف زفت خالص ، والنرومي الي جنب
فلسطين وده صنف عال قوي ، زي الحبشي وأحسن !! ..

وصممت الحاضرون وكانهم اقتنعوا بمنطقه ، وسكت
عبد الرشيد هو الآخر ريثما أشعل سيجارة النقطها من علبة
كان قد طرحها مفتوحة على المنضدة واحد من الجالسين .

ثم استأنف حديثه قائلا :

- حاكم أنا كنت ماشي مع واحدة رومية ، قعدت معاها
يبجي سنة ، وبعدين هربت منها رحمت لواحدة حبشية ، بنت
صغار بتاعت خمسة وثلاثين سنة ، وكانت من غير مواخدة
سحارة تحضر جان وعفارت ، وأنا كان صبيتي ضارب قوى
بين الحريم ، كنت أي حنة أفرج فيها يتلموا على زي الديان ،
ما عرفش أحسن فيهم ، الغرض واحدة جنية م الي بتحضرهم
الست الحبشية سمعت عنى عرضت على اتي أخاويها . قالتل
أجيبك أكلك ، وسجايرك ، وأهنسك تمام ، قول قبلت !
وقاطعه أحد السامعين مقاطعا :

- وخاويتها !!

- أمال ! .. ونزلت معاها تحت الأرض . عالم زي هنا
بالضبط ، ومسلمين تمام ، قعدت معاها أسبوع ، ناكل أحسن
أكل ، ونشر أحسن شرب وكانت ست فاضلة ، تصوم وتصل
الوقت بوقته ، وبعد أسبوع طلعتني فوق ، وكل يوم خيس
بقت تزورني ، وكل يوم تجيب معاها قفاطين شاهي وجلاليب
جوخ ، وصدف ، وجزم شمواه وشرايات م النايلون ، عشت
معاها في عز وتفتنه .. ماقيش بعد كده !!

وتوقف عبد الرشيد قليلا وضرب أصابعه المشسومة في
علبة السجائر ثم انتزع أصابعه خاوية ، والحسرة تبدو على
وجهه البشع ، فقد كانت العلبة خالية ، وصدف الحاضرون
للجرسون ، وأخرج كل منهم قوشا ، وطلب من الجرسون
ثلاثة هوليود ، وعاد عبد الرشيد الي حديثه مطمئنا الي أن
السجائر سوف تحضر بعد قليل :

- عشنا زي الملوك تمام ، ماقيش يوم زعلتني أبدا ، مرة
واحدة بس قالتلي يا عبد الرشيد ياخويا اعمل كل حاجة الا انك
تخونني ، أو تقول لحد م البنى آدم ، قتلها عيب يا جنية ! ..
وحلفتها ع العيش والملح . الغرض صدقت ، وفضلت ماشي
أنا كويس يبجي سنة ، وبعدين صميت مع جنية ثانية ،
«جنية تالته ، ورابعة ، لما بقيت ماشي يبجي مع ميت جنية »
وقاطعه أحدهم :

- ولا عرفتش !؟ ..

- أبدا ، دانا كمان كنت قايم بواجباتها مظلوط ، وعشان
كده ، حتى لو كانت تعرف كانت لازم تصهين ! ..

- أمال هجرتك ليه ؟ ..

- مانا جايلك في الكلام . أنا في الآخر غلظت ، وحاكم
اللسانك حصانك على رأي المثل ، ولسان البني آدم
يستاهل قطعه . يوم من ذات الايام قلت لواحد صاحبي
ع الحكاية كلها ، وبعد ساعة واحدة لقيتها قدامي مع انه
ماكانش ميماد ظهورها . وقالتل موش عيب يا عبد الرشيد
قتلتها ححك على ياست ، غلظت وسامجيتني قالتل لا . أنا
حذرتك وامت ماستعش الكلام . وراحت خيطاني على صدري
.. وكنت بقيت زي الفرخة الدايخة ، ويومها بالذات وقعت
تحت الترهاتي وكل رجلي ..

وهتف الجميع في صوت واحد :

- لاجول ولا قوة الا بالله . صحيح لسانك حصانك ،
ما يودش الواحد في ذاهية غير صاحبه ولسانه !!
وعقب عبد الرشيد على هذا بقوله :

- أمال .. اسألتني أنا ، حاكم أنا برعت كثير قوى ..

وسادت فترة صمت طويلة ، والجميع يمصصون شفاهم ،
ويهزون رؤوسهم أسفا على النهاية السيئة التي انتهى اليها
عبد الرشيد لأنه فشل في الاحتفاظ بسرّه بين ضلوعه .
وانتهز عبد الرشيد الفرصة فنأدى على الجرسون ، وأمره
باحضار واحد شادي على حساب سي محمد ، واحد من الخمسة
الذين استمعوا الي القصة . وبعد أن جاء الشاي ووشف منه
عبد الرشيد عدة رشفات طويلة .. مال عليه سي محمد

وسأله في همس غير مسموع :

- وبترجم لحد دلوقت يا عبد ٩٠٠٠ ؟

ورد عبد الرشيد وهو يغمز بعينه :

- على خفيف !!

- يا سلام ! ٠٠ وفيك حيل لسه ؟ ٠٠

وهز عبد الرشيد رأسه ٠٠ وقال :

- الحمد لله ، حاكم الركة الاساس ٠٠

ثم استنطرد عبد الرشيد على الفور :

- ليه ٠٠ انت اياك تعبان ؟!

وتردد سي محمد قليلا قبل أن يجيب على السؤال :

- أنا حاكم من سنة كده ٠٠ وأنا يعني من غير مؤاخذة ٠٠

زي ما يكون الاسياد ماسكني ٠٠

وقال عبد الرشيد :

- أعوذ بالله ، ولا جربتس حاجة ؟!

- جربت كثير ٠٠ انما مافيش فايذة ٠٠

- وجربت ايه ؟ ٠٠

- حبوب مافيش فايذة ، أقيون مافيش فايذة ، واحسد

مسوادتي عملي حجاب ٠٠ برضه مافيش فايذة ٠٠ دخت

بمعيد عنك !!

وأجاب عبد الرشيد :

- لا ما هي الحاجات ذي بيني وبينك مافيهاش فايذة ، أنا

حاكم جربتها مانفتش !! ٠٠

وهتف سي محمد في اندعاش بالغ :

- الله ، هوه انت راخر ٠٠ من غير مؤاخذة ! ٠٠

وارتبك عبد الرشيد ٠٠ وتبدل لون سحنه ، ولكنه عتف

على الفور :

- لا ٠٠ أنا أصلي ٠٠ من غير مؤاخذة ٠٠ كنت زمان كده

٠٠ كام يوم يعني ٠٠ وبعدين كل شيء رجع لاصله !!

وعندما انتهى عبد الرشيد من حديثه ٠٠ رفع ذيل جلبابه

ليخفف به العرق الذي أخذ يجري على صفحة وجهه المجفود ،

وبدا من حركات عينيه الثقلتين انه وقع في ورطة شديدة .

ولكن صوت ارتفع من جانبه أنقذه في الوقت المناسب ، وكان

الصوت لاحد المجالسين ينصح سي محمد بوصفة هي خير

الوصفات جميعا ٠٠

- عليك باللين الصبح ، وتغليه في النعناع ، ومعلقة زبنة

يقري ، وتشرب ده يده ، كل شيء يرجع لاصله ٠٠ بادن الله .

وأصت سي محمد بكل جوارحه الى الوصفة الجديدة ،

وكذلك فعل عبد الرشيد ، ولم تضي لحظة حتى غادر سي محمد

المقهى وكذلك فعل ثلاثة من المجالسين ، ولم يبق الا عبد الرشيد

والآخر الذي نصح سي محمد بالوصفة الفعالة ، وعندما غاب

الرجال عند المنعني في نهاية الشارع ، مال عبد الرشيد الى

الرجل الذي يجوارزه وسأله في اهتمام بالغ عن الوصفة التي

تعيبه كل شيء الى ما كان عليه ، وهتف الرجل الآخر في

شجر شديد :

- ماقلتك يا أخي ، اللين وتغليه في النعناع ، ومعلقة زبنة

كل يوم الصبح ٠٠

واستند عبد الرشيد بظهره على الكرسي ، ومد ساقه

السليمة على بلاط المقهى ، وضرب يده على فخذه بشدة ، ثم

رفع يده الأخرى الى فمه وراح يقرض في أظافرها ثم تمتم

بينه وبين نفسه في حق شديد :

- لين ونعناع ٠٠ وزبنة ٠٠ ياخراي يا جذعان ، دي حاجات

غالية كلها ٠٠

ولم يسمع أحد هذا الهمس الذي ردهه عبد الرشيد بيته

وبين نفسه لأن الرجل الآخر كان قد نهض منذ برهة ٠٠

وغاب عند المنعني !! ٠٠



عندما عاد حامد الى كفر شارل بعد الظهيرة في ذلك اليوم من ايام شهر يونية الحارة ، كان كل شيء يجري في الكفر كما كان يجري بالأمس ، وأول أمس ، ومنذ عام مضى ، وخمسة أعوام سابقة أو منذ انشقت الأرض عن كفر شارل في تلك البقعة خارج مدينة السويس على ربوة عالية ناحية الغرب . كان الشوارع الوحيدة في الكفر قد ازداد طينا عننا ، وقتوات بقايا الجاز المتخلف عن عملية تكرير البترول في المعامل الضخمة التي تقع بالقرب من كفر شارل ما تزال تجري بها تحمله من جاز له لون أخضر ورائحة خبيثة ، وأطفال كثيرون عرايا مثل القروء يقفزون في أنحاء الشوارع ، ويفوصسون بأقدامهم في الطين ، وفي قنوات الجاز الأخضر ، ويقضون

بأسنانهم الصفراء المتراكمة شيئا له شكل العيش .. وان كان ليست له خصائصه .

وسرت الراحة في بدن حامد ، ربما لأول مرة في حياته منذ أن جاء الى كفر شارل .. فقد أن الآوان أخيرا ليهجره .. وهو ما جاء اليه الآن الا ليأخذ معه ماتبقى له من متاع ، وسوف لا يعود اليه أبدا مهما كان الأمر .. لا زائرا ولا ساكنا .. فكفاه ما لديه في كفر شارل من بؤس وفاقدة مدى خمسة أعوام كاملة ، وعندما دفع حامد الباب أمامه في ضجر فافتتح الباب محدثا صوتا مزعجا ، توقفت قليلا ليلتقط أنفاسه ، ثم رفع ذيل جلبابه ليمسح العرق الغزير المتدفق على جبهته وصفحة وجهه العريضة ، وعندما سار الى الداخل كان زميله في السكن ، وبلدياته حسين نائفا مسددا على الأرض كأنه « فسيخة » ، وعيناه الحادتان الضيقتان كأنهما عيني صقر تحديقان في الشقوق الكثيرة التي تحتل السقف والجدران ، ولغافة تبغ دنت من نهايتها تستقر بين أصابعه ، ولم يبد الاهتمام على حسين لمقدم حامد ، فهو منذ خمسة أعوام يعود في نفس الوقت ليرقد على جنبه كالتفيل فلا يستيقظ الا في المساء ، ولكنه هذه المرة جاء فجلس قبائنه ومد إحدى ساقيه على الأرض وثنى الساق الأخرى ، وأستند ظهره على الحائط الصفيح ، وساد الصمت فترة قصيرة بين الرجلين ضرب حامد يده بعدد في جيبه فأخرج علبة سجائر كاملة قدمها الى حسين ، وعندما وقعت عيننا الآخر على العلبة الكاملة صب من رقدته مذعورا وكأنما لعفته عقرب ، وغاص بأصابعه الخمسة داخل العلبة وانتزع لنفسه واحدة منها ثم عاد الى رقدته من جديد ..

وإعاد حامد العلبة الى جيبه بعد أن أشعل لنفسه سيجارة منها ، وجلس الرجلان يدخنان في لذة بالغة ، وفجأة قال حسين وهو ينظر طويلا الى السيجارة :

— ايه الحكاية .. أنت قتلت واحد الإنجليزي النهارده ؟ .. ورد حامد في صدمه :

- أبدا .. بس لقيت شغل ..
ومن جديد .. صب حسين جالسا ، وقد اتسعت عيناه ،
وربما تدمعت على وجهه .. وصرخ غير مؤمن بما يسمعه :
- شغل .. فين الشغل ده ؟
وقال حامد وهو يجذب نفسه من السجارة :
- عند الريس سليمان ..
وقطب حسين جبهته ، وعض أصبعه بشدة ، وضرب جبهته
بصفحة يده ، ونظر الى حامد في ذعر شديد قال وكانه
لا يصدق ما يسمعه :
- انت اتجنيت والا ايه ؟
وقال حامد بلا مبالاة :
- ولا اتجنيت ولا حاجة ..
وعاد حسين الى نومه على الأرض ، وراح ينفث دخان
سجارته في فضاء الحجرة الرطب .. ثم قال :
- وياه اللي حصل ؟
- ولا حاجة ، قابلت الريس النهارده وافقت معاه ..
- بكلام ؟
- ..
- بخمسين قرش في اليوم ..
- وليك كام ع الميه ؟ ..
- زى الرجالة ..
- وان مت ؟
وقال حامد بمنتهى الحزم والشدّة :
- في سنتين ألف داهية ..
- طيب والسلاح ..
- حاسنتله بكرة .. مدق وميت رصاصه ..
- والشغل امتي ؟
- بعد بكرة بالليل ..
وعاد الصمت من جديد يلف المكان .. لا يعكروه شيء
الا صوت الأطفال الذين يلعبون عرايا في الشوارع الموحل ،
ويفوضون بأقدامهم في قنوات الجاز المتعفن .. وجذب حامد

آخر نفس من السجارة ثم طوح بها الى الخارج .. ومد ساقه
الاشخري على الأرض ، ثم حبط عليها بيده .. وسأل حسين
في خبث :

- وانت رايتك ايه في الشغلة دي ؟

وقال حسين وهو يتقلب على جنبه :

- شغله مهبية .. عبد القادر ميت فيها ، وسيد مات فيها ،
والواد خليل ضربه في عينيه ما يبشسوفش من يومها ،
واسماعيل اللي كان زى الفحل مات فيها .. يبجي ميت راجل
زينة قوى ماتوا السنة دي من وراء الشغلة المهبية دي ..

وقال حامد بعد فترة قصيرة :

- ويعنى عاجبك الحال يا حسين ؟

ورد حسين وهو يرقع يده في الهواء ويتلأب :

- اهو احسن م الموت .. وبكره يمكن تفرج ..

ودس حامد يده تحت جلبابه وراح يهرش في بطنه ، وقد
انزل سرواله قليلا عن مكانه ثم هتف في غيظ :

- عمرها ما حاتفرج ، كل يوم أسودم الثاني ، وهو الشغل
للرجالة ع العموم ، ويمكن تصح معانا وتبقى الأشياء عال ..
ورد حسين في صوت حزين :

- كانت صحت مع الرجالة كلها اللي ماتوا دول الراجل
من دول ان عاش شهرين ورا بعض يبقى حظه بمب .. هوه
حد بيفضل ..

وهتف حامد في ثقة المنظمين :

- الأعمار بأمر ربنا ، مقيش حد بيموت ناقص عمر ..

- كلام فارغ ده ، هو حد قال ارمي نفسك قدام القطر ،
وقول الأعمار بأمر ربنا ..

وكانما أقمعه حسين بمنطقه فرد حامد محتقا :

- طيب وتعمل ايه ، نموت من الجوع يا حسين .. مش
خمس سنتين دلوقت واحنا مش لاقين نهرش .. والعيال تلقاهم
ماتوا م الجوع في البلد ..

فدان في البلد ، ويتركب عربية زى الذوات ، خد ايه ابراهيم
وحسان وسيد الى ماتوا ، خلت ايه عيالهم .. أنا أعرق حاجة
واحدة يس .. الى يسرق .. يسرق لنفسه عموك شفت
الريس سليمان زاح مع الرجالة في ليلة . اهو قاعد في المكتب
زى الباشوات .. عشرين نفر يروحوا ، يرجعوا عشرة ومعاهم
المواسير ، ياخذ هو المواسير وتروح الرجالة في ستين داهية ،
حتى الجنت ما يروضاش يستلمها ..

وسكت حسين عن الكلام وكانها هدأت ثورته .. ورفع
اصبعيه في الهواء راسما بهما إشارة ، فهم حامد من ورائها
انه في حاجة الى سيجارة وأشعل الرجلان لفاطهما ثم راحا
يدخان من جديد ، وقال حسين في هدوء هذه المرة ..

- وراح تعمل ايه ..
- حارج من الكفر المهيب ده ..
- وتسكن فين ؟
- في السويس ..
- والعيال ؟
- راح ابعث ابيهم م البلد ..
- ليه ماتخيلهم مطرحهم ..
- لا هنا يبقى أحسن ، عثمان ان جرى حاجة .. يقولوا
ياخدوا حقهم م الريس سليمان ويروحوا البلد تاني ..
- وعمرش حسمين في ساقه .. وهو يتسائل في لغة ..
- وخذت فلوس منه ؟
- خمسة جنيه ..

ولعت عينا حسين بالفرحة ، وتهللت أساريره ، فهو لم
يلق شئينا من الطعام منذ ساعات طويلة .. وبما بلغت
العشرين ، وماتام حامد قد حصل على هذا المبلغ الكبير من
الريس سليمان فسيتناول طعام العشاء حتما .. فحامد شهيم
وجسدي ، والتي يملكه ليس له على الإطلاق . وعندما نهض
حامد من مكانه على الأرض في طريقه الى المدينة ليقضى بعض
أهوره الهائلة ، وليحضر طعام العشاء .. ترك حسين أربع

وسكت حامد قليلا ثم أضاف :
- طيب والله لو لقيت شغل في النار لاشتغل ..
- وعوه قيه نار أكثر من كده .. دى النار أهون ..
ورد حامد متحمدا :
- ليه عثمان ايه يعنى ؟

- انت مش عارف أصل الشغلة ؟
- عارف .. راح تسرق مواسير الجيش الاتجليزي ..
- وعارف المواسير دى كام واحد حارسينها ؟
- كثير ..

- وعارف ماسكين ايه ؟
- مدافع ..
- طيب .. أمال انت عايز ايه أكثر من ده ..
وقال حامد في استهتار :
- واحنا كمان معانا مدافع ..
وقال حسين في صوت خافت :
- واللى ماتوا كمان كان معاهم ..
ورفع حامد أصابعه الخمسة الى فمه .. وراح يقتل شاربه
.. ثم قال في تحدي :
- انت خواف ..
وهب حسين جالسا على زكبيته وكأنه يصلي .. وقال :
- لا مش خواف ياحامد ، بس انا ماشيعش عمري عثمان
خاطر الريس سليمان ..

- والريس سليمان ماله في الموضوع دا كله !
- ماله كيف .. مش المكاسب كلها داخله عنده ..
- طيب ماهو الرجالة بتاخذ عرقها ..
- بتاخذ ايه يعنى .. خمسين قرش في اليوم .. وهو
ياخذ خمسين جنيه .. مش كده ، ولم يرد حامد على حسين
.. بل اكتفى بقتل شاربه الضخم ، وعاد حسين الى حديثه
قائلا :

- مش بقى عنده أربع عمارات في السويس ، وعنده ميت

لغات تيم من علبته الكاملة .. ولكن حسين لم يدخن شيئا
 عنها ، فقد وضعها جميعا في جيبه .. وتام نوما عميقا ..
 والحقيقة أن الرجلين رغم صداقتهما الطويلة . فانهما
 يختلفان عن بعضهما اختلافا كبيرا ، اختلافا يمس الشغل
 والموضوع معا . فهما صحيح من بلغة واحدة ، ومجر الاثنان
 قريتهما في وقت واحد تقريبا ، وجاء كل منهما الى مدينة
 السويس يسمى الى رزقه .. وعملا معا في معسكرات الجيش
 .. وفي الميناء .. غير أن حامد كان شابا لم يبلغ الثلاثين بعد ،
 عرض الكتفين .. فتوسط الطول قوى مثل الثور ، متوسط
 الذكاء ، وإن كان الطموح لا ينقصه . أما زميله حسين فقد
 كان رجلا بلغ الاربعين .. وربما تعداها قليلا ، وخطا السبب
 شعر رأسه وشاربته ، وكان طويلا نحيفا بارز عظام الوجه ، له
 عينان حادتان ضيقتان كعيني صقر . وكان ذكيا للغاية . وإن
 كان عمره الذي أسرع به نحو الشيخوخة ، والتجارب المريرة
 التي خاضها قد جعلته أقل طموحا من زميله حامد ولكن الاثنان
 كانا يلتقيان عند نقطة هامة .. هي لا بد من تغيير حياتهما المملة
 البائسة ، ولعل حامد كان أكثر الرجلين رغبة في احدث هذا
 التغيير . فهو عندما كانت الحرب قائمة ، وكانت المكاسب كثيرة
 .. خطر له أن يعيش مثل بقية الناس فقد الرجال الى قريته
 - بني فيز - وعاد معه زوجة شابة ، ثم مضت الحياة بهما
 طيبة هادئة .. حتى انتهت الحرب .. ثم توالت المتاعب ،
 ولو كان حامد وحده وقتئذ لما ضره شيء ، ولكن المصيبة كلها
 أن زوجته كانت تعاني المصائب ، وكذلك ثلاثة أطفال صغار ،
 وعندما استحسنت حلقات الازمة حول عنقه اللطيف فكر في
 التخلص من الحياة كلها ، فكر في أن يقتل زوجته واطفاله ثم
 يقتل نفسه .. فهذا أهون بكثير من السنة الناس في بني فيز
 .. ولكن هذا الحاطر لم ينفذه أبدا ، فقد كان حبه الجارف لهم
 يغطي على كل شيء .. وأيضا لأن ثمة أمل باهت كان يداعب
 خياله في أنه آخر الأمر مسيحا حلا للمأساة التي يحيا داخلها
 وذات مساء وضع زوجته واطفاله في عربة مزدحمة من عربات

الدرجة الثالثة ليعودوا من حيث جاؤوا ، وحمل هو ما تبقى
 من متاع وجاء الى كفر شارل ، ومن يومها لم يهدأ تفكيره لحظة
 في ضرورة إعادة عائلته الصغيرة من الصعيد ..
 لقد ظل يرسل لهما الخطابات يوما بعد يوم ثم فترت همته
 قليلا ، وأصبح يرسل الخطابات أسبوعا وراء أسبوع ، ثم
 تلاشت هذه الهمة نهائيا ، فتوقف عن الكتابة والاتصال .

ولكن حسين لم تكن له عائلة . وربما كانت له ولكنه لم
 يتحدث حامد بأمرها أبدا كان صامتا أبدا يتكلم عند الحاجة ،
 وحتى كلماته لم تكن تزيد عن شرح الغرض المقصود بها ..
 وكان صاحب مزاج ، يدخن كثيرا ، ويزور حلقات المشيش
 أحيانا ، ويستحلب الأقبويين تحت لسانه كلما حصل على
 خمسة تعريفة ، وأحيانا . في بعض الامسيات الحارة وهو
 جالس مع حامد عند عتبة الباب ، كان حسين يخرج عن صحته
 فيروي قصصا كثيرة عن مغامراته خلال الحرب مع العساكر
 الانجليز . وكان يطلق عليهم أوصافا فاجرة . ويحلل أمزجتهم
 وطريقة حياتهم بأسلوبه الخاص . وكان حسين خلال الحرب على
 علاقات شاذة بالضباط والجنود الانجليز ، وكان يكسب كثيرا
 من وراء علاقاته هذه . وكان يبدو فخورا بمسلكه .. فهي
 علاقات لا تشينه أبدا ، ولكنها تشين الانجليز ، وتمس جوهرهم
 كرجال . وكان يتحدث دائما عن الضابط الكبير الذي اقتناه
 في منزله ..

وعاش حسين طويلا في ذلك المنزل لا يعمل شيئا ، يأكل
 كثيرا .. وينام كثيرا مثل الكلب ويفدق الضابط عليه كثيرا
 كلما أدى مهمته في الليل على خير وجه ، وكان حسين يؤدي
 مهمته دائما ، كأحسن ما يكون الضابط قوة ، ويأسا ، ورغبة ،
 واقبالا على أداء ذلك العمل القريب ولكن لم تكد عدة شهور
 تمضى حتى أحس حسين بالتعب يسرى في أوصاله ، وبالحمول
 يسيطر عليه ، وبالضعف الشديد يهد كيانه القوى ولم يعد
 يستطيع أن يؤدي دوره مع الضابط الانجليزي العجوز . فترك
 انيبت الى الشارع .. ولكن بعد أن كان السل قد أنشب

أظفاره فيه ، ومع أن حسين قد استطاع أن يوقف حدة المرض
.. بل وكاد يقضي عليه ، إلا انه لا يزال يحس بالضعف والاحمول
.. ولعل ذلك هو السبب الحقيقي في صمته وعزوفه عن الكلام
.. وإن كان في الوقت نفسه لا يتأثر بردد .. كلما سئحت
قرصة - عن استعداده الكامل للقيام بأي عمل .. نعم أي
عمل يعرض عليه في سبيل أن يخلق لنفسه حياة أفضل ..
من هذه الحياة التي يعيشها في كفر شارل ..

كان المساء قد جاء عندما فتح حسين عينيه ، ولم يكن حامد
قد عاد بعد من المدينة ، ونفض حسين متناظلاً وخماناً ، والنوم
يكيس على عينيه ، والعرق يبلل هدومه ، ورأسه تدور من
الوهن والجوع .. وفي صعوبة شديدة راح حسين يزحف على
قدميه خارجاً عند العتبة .. كانت السماء صافية تماماً ،
والسجوم تلمع في الأفق والصحراء التي تحيط بالبوّة ساكنة
هادئة ، بعض أجزاءها المعبدة تشع نوراً مسدده معسكرات
الانجليز المنتشرة هنا وهناك .. وأيام العزّ كان حسين يعمل
هناك ، وكان ينام هناك أيضاً .. ولم يخل جيبه أبداً طول
ذلك الوقت من النقود والسجاير .. ليبتها ما توقفت تلك الحرب
التي كانت السبب في هجرته الى هنا ، ثم كانت السبب آخر
الأمر في لجوئه الى كفر شارل لينضم الى القطيع البائس الذي
يجب هنا بلا غاية وبلا أمل .. وهو ليس مثل الناس الذين
يجيئون في كفر شارل .. فهؤلاء لم يجربوا الحياة أبداً ، بل
كانت حياتهم أبداً محدودة وبائسة ، وسواء الذين يعمل منهم
في شركات الجاز ، أو الذين يعملون أنفاداً عند المقاولين ..
ولكنه هو خبير الحياة وذاق حلاوتها كما لم يتذوقها أحد مثله
.. وعاشر الانجليز سمعة أعوام كاملة وأكل معهم ، وحضر
سهراتهم ، وذاق الرويسكي وتعلم لغتهم أيضاً ، وكان
ينفق في بعض الليالي ما لا يحلم به رجل في كفر شارل عشرة
أعوام ..

وتوقف عقل حسين عن السرحان في الماضي الذي كان متوردا
وجملاً ، وراح ينتظر فيما حوله مدققاً النظر في عيش الصفيح

القائمة هنا وهناك .. حامد معه حق في قبول الشغلانة مادام
ستترك هذا القبر .. مادام سيسكن في المدينة مثل الأفندي
المستوطنين .. وكفر شارل هذا ليس قرية ، وليس بلداً وليس
مكاناً على الإطلاق .. وهو منذ خمسة أعوام فقط لم يكن له
وجود في هذا المكان ، ثم عندما وقعت الأزمة ، وطجنت البطالة
تفوس الناس وأملهم ، خرج العمال جماعات الى خارج المدينة
يرحون لهم عن ماوى ، وفوق ربوّة مرتفعة نوعاً ما عن سطح
الصحراء ، أقام هؤلاء العمالون عدة بيوت من الصفيح في صفين
طويلين يخرقهما شارع واحد ..

ولم تكن البيوت التي أقامها العمال بيوتاً بالمعنى الصحيح
بل كلها شيدت من الصفيح القديم الذي باعتته سلطات الجيش
الانجليزي لعدم حاجته اليه ، ولا تزال بعض أجزاءه تحمل
العلامات والعلامات المميزة له ، كالصليب الأحمر ، وماركات
العربات المعروفة وغيرها ..

وسكان كفر شارل .. لا يملكون البيوت هناك ، وإن كانوا
يملكون الصفيح فهي ملك لخواجا يدعى شارل لا يعرفه الا أهالي ولم
تقع عليه أعينهم مرة واحدة ، وإن كان وكيله المصري دائم المرور
عليهم مرة أول كل شهر لتحصيل الأيجاز منهم .. وكان عادة
لا يزيد عن خمسة قروش في الشهر للمتر الواحد .. وكل
بيت في كفر شارل لا تزيد مساحته على ستة أمتار .. وسكان
الكفر هم غالباً من العمال المتصلين من شركات البترول ، أو
الذين كانوا يعملون في الميناء خلال الحرب ، ثم وجدوا أنفسهم
فجأة - بعد الحرب - بلا عمل في الميناء ، وبعضها يعمل في
خدمة الجيش الانجليزي عن طريق المقاولين .. أي أنهم يعملون
يوماً ولا يجنون العمل أياماً .. وحتى اليوم الذي يجنون فيه
عملاً فإنهم لا يتقاضون عليه أجراً كبيراً .. لأن المقاول يستولي
على الأجر كله .. ويتصدق على العمال بالقليل .. ولكن رغم
ذلك .. فقد كانت الحياة قمى هادئة في كفر شارل وفي
خلال الخمسة سنوات التي تلت الحرب لم تقع جريمة قتل
واحدة ، وكذلك لم تقع حادثة سرقة من أي نوع .. إذ ليس

في كفر شارل شينبا يسرقه اللصوص ، وحتى السخطلم يكن
يجد طريقه ليتسلل الى قلوب الناس .. فقد تعودوا الحياة
هناك والقومها وظنوا أنها قدرا مقسوما عليهم ولا سبيل الى
الفتك منها بآية حال ..

ولكن حسين ليس مثل هؤلاء الناس أبدا ، انه شيء آخر
ولابد ان يظل كذلك ، هو يخشى الآن على نفسه من الموت
.. فهو يحس احساسا صادقا بأن روحه قد ماتت ، ولم يبق
عليه ليكون جثة الا أن يموت جسده كذلك ، وراح حسين
يمسح بكف يده جسمه من الداخل محاولا تخفيف العرق
الذي يؤله ويجعله راغبا في الهرش على الدولام . وقبل أن
ينزع يده من تحت جلبابه .. لمح شميح حامد يصعد الهضبة
وبين يديه تكدمت أوراق ولفافات ضخمة .. لقد صدق
حسبه .. وما هو حامد يعود ومعه طعام كثير .. وعندما
أصبح الرجلان في مواجهة بعضهما . وقف حسين على قدميه
ومد يده فحمل شيئا من الأوراق المنقوفة .. ودخلا على الفور
.. وتناولوا طعام العشاء في صمت ، كانت تلك هي الليلة
الأخيرة التي سيقضيانها سويا .. ولذلك كانت بمثابة حفلة
وادع .. ورغم أن حامد كان يتصنع السرور أحيانا الا ان
مسحة من الكآبة والوحشة كانت تخيم على جو المكان ، وبعد
أن فرغا من عشاءهما جلس الرجلان يبدآن الشاي في كوز
صديء من الصفيح .. كان أصلا عليه بولوييف ..

وعندما كان الشاي يغلي داخل الكوز سال حسين حامدني
اشفاق :

- خلاص نويت ..

وأجاب حامد في هدوء أشد :

- ان شاء الله ..

ولم يزد الرجلان على ذلك حرفا ..

وعندما انتهيا من اعداد الشاي .. راحا يرتشفانه على
عجل ، ويدخان السجائر في لذة مشوية بالقلق وعندما أتت
النار على السجائر ، ألقيا بها الى الخارج ، ثم نهض حامد نصف

١٠

قومة ، ومد يوزه فاطفا المصباح ، وتمدد كل منهما في جانب
.. وراحا يستعدان لنوم عميق ..

ولكن صوتا ارتفع وسط السكون والظلام المطبق عليهما
.. وكان صوت حسين يسأل في خوف واشفاق :

- انت رايع بكره للرئيس سليمان ؟

- أيوه ..

- الساعة كام ؟

- الساعة سبعة ..

وتقلب حسين على الخصر المعزق المفروش على الأرض ..
وقال بنفس الصوت الخافت الحزين :

- طيب أنا رايع معاك بكره ..

وأطبق الصمت من جديد .. وهبت نسمة خفيفة فاعلقت
النافذة المفتوحة أعلا الجدار .. وتضاعفت الظلمة وساد المكان
رهبة وهيبة .. ثم مالبت الرجلان أن غرقا في نوم عميق ..

ياعزيز ..



ازدانت القرية في ذلك
الصباح وشغلت نفسها بالحديث
عن القادم اليها .. هذا اليه
الدكتور الذي يعرف كل شيء ..
ومي رأسه علم الدنيا .. والذي
شرب العلم من بلاده ، وعندنا
كان في بلاد بره ، حتى فاق
اهل بره علما وفنا !! ..

ومن في الدنيا لا يعرف
الدكتور شريف .. ده متعلم في

أمريكا يا جدعان وشارب العلم من بز أمه ..

كذا أكد شندى لأهل القرية وهو يتحدث عن البيه
الدكتور الفتي سيصرف القرية في المساء ليتحدث الى الفلاحين
عن كيفية حلب البقرة ، ووسائل زيادة الثروة الحيوانية ..
موضوع المحاضرة كما كتب على تذاكر الدعوة التي وزعها عضو
مجلس الشيوخ على كبار المزارعين والأعيان ..

ولكن الفلاحين غالبا لم تصل اليهم دعوات لحضور المحاضرة
اكتفى العمدة بالمرور عليهم في بيوتهم في موكب مهيب من
الخبراء وشيخ اختر ، وشيخ البلد ، وتبه على كل منهم ألا
يتأخر في الحضور الى المركز الاجتماعي حتى لا تفوته محاضرة
الدكتور، لم ينس العمدة أن يخبرهم وانتسامة عريضة ترسم
على شفثيه أن البيه المأمور سيصرف الحفلة ..

ولم يعد هناك حديث للفلاحين الا البيه الدكتور والمحاضرة

وراح كل منهم يرسم بخياله الواسع صورة للدكتور المتعلم
بره .. في أمريكا ، والفني فاق أهل بره علما وفنا ..

- ولكن .. ما هي الثروة الحيوانية دي يا جدعان ..
ككذا تسأل أحمد البديوي ريس أفتار البودة في عزبة
العمدة ، وسارع محمد أفندي المدرس الإلزامي بالرد عليه
- الثروة الحيوانية يا بهيم ماتعرفاش ..

وضحك أحمد البديوي حتى استلقى على قفاه ، وقال وهو
يلهث من شدة استغراقه في الضحك ..

- يعني هوه أوبوا كان وداني الجامعة ..
وضرب محمد أفندي كفا بكف وهو يلعن أبو البهايم ..
ويزوم مثل كلب جريح ..

- بقي فيه حد لسه مايعرفش الثروة الحيوانية يا جدعان
وعايشين في الدنيا تعملوا ايه بالتمة .. الثروة الحيوانية
يا حيوان يعني بدل مايقى عندك جاموسة تبقى عندك
جاموستين ..

ورد احمد البديوي على الفور :

- طيب ويبقى عندك جاموستين ازاى وأنا مااعتديش
فلوس .. هوه أنا لاقى أهرش ..

وضيق محمد أفندي ما بين حاجبيه وعينيه .. وراح يخلع
بأظافر يده ، أظافر قدمه ، وقال في حموه بالغ :

- أهو ده اللي متعرفوا النهارده في المحاضرة ..
تم أضاف بعد فترة صمت طويلة :

- حاكم البلاد كلها راح تشوف التمدن ، وبلدنا دي مكتوب
عليها الفقر ، طول مايقا بهائم زى احمد البديوي ..

وأثارت العبارة الأخيرة احمد البديوي فزق على الفور :
- جرا ايه يا محمد أفندي ، احنا يعني غلطنا في البخاري ،
هو ده اسمه كلام برضه ، بقى يعني حلب البقرة عاوز محاضرة

وضحك محمد أفندي طويلا ، وقال وهو يمز رأسه بشدة :
- محاضرة يا بهيم .. مش محاضرة ..

- أنا عارفلك بقى .. أهو محاضرة زى محاضرة ..

ونهض محمد أفندي ، وقبض بيده على حفنة تراب وهو ينهض متناقلا ، ألقى بها على رأس البيدوى ، وهو يقول ضاحكا :

- ياراجل روح شوقك تربة ، قبل الموت ما يغني . وقال البيدوى دون أن يتحرك :

- أهر الموت جنى .. يعنى عوه احنا راح نخلل ..

وعندما ابتعد محمد أفندي عن الجمع المحتشد عند دكان ونجحت ، تساءل إبراهيم عطوة فى خوف شديد :

- عوه الدكتور اللى جى الليلة راح يكتشف ع البيهايم .. وعرش البيدوى فى قفاه .. قبل أن يقول :

- حد عارفلهم حاجة ..

وقال إبراهيم عطوة بحذر :

- حاكم البهيسة بتاعتنا عيانة قلت أخبيها هنا والا هنا . وارفع صوت من وسط الجلسة يقول :

- خبيها برضه احسن ، ماحدش عارف ايه اللى راح يجرا وفى المساء كان المركز الاجتماعى يسبح فى الضوء ، وبموج

بالمئات الذين توافدوا اليه من أنحاء القرية والقرى المجاورة . وكان عساكر البوليس يضربون حوله طفاقا ، وثمة صوت

مزعج يصرخ فى الميكروفون لتجربته قبل بدء الفلعة . ولم يكن بين الجمع الحاشد واحد من الأعيان اللهم الا عبد الرسول

شحاته وهو يملك عشرة أفدنة لا غير ، ومع ذلك أصر على الجلوس فوق الكراسى القلطيفة ، ورفض أن يتنلح من فوق

الكرسى ولو اضطره الأمر الى ارتكاب جنابة !

وبعد قليل أقبل المأمور ومعه الدكتور شريف وبعض الأفسندية ، فأفصح الناس نهم طريقا .. وسرعان ما اتخذ

الجميع مجلسهم فى الصف الأمامى ، وأصر المأمور على ألا يجلس قبل أن يجلس عضو الشيوخ والدكتور أولا ..

كان الدكتور شبابة فى الثلاثين من عمره يرتدى بذلة حريرية بيضاء ، ويلبس نظارة سوداء رغم أن الشمس كانت

قد اختفت منذ ساعات ، ويبدو نحيفا خفيفا كأنه ريشة حمامة بيضاء ..

وحس الفلاحون بأن العلم هو الذى سلبه حيويته ونضارته وأكل شبابه ، وأنه لولا العلم لكان مثل طور الوسية ، أو مثل

احمد البيدوى على الأقل ..

وعندما انتهى القرى من التلاوة ، قام الدكتور فى خفة ووقف أمام الميكروفون ، وبعد أن تمنح وشرب شسطة ماء

واحدة قال فى صوت جميل ، وبعبارة واضحة :

- أيها الفلاحون الزملاء . السلام عليكم ورحمة الله .

ورد المجلسون جميعا وفى وقت واحد :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..

ولكن يبدو أن الدكتور لم يكن ينتظر ردا منهم فأسرع مواصلا حديثه على الفور :

- ان موضوع الساعة هو كيفية حلب البقرة ، ووسائل زيادة الثروة الحيوانية ، وسأتحدث اليكم بعد خبرة خمسة عشر عاما قضيتها فى أمريكا ..

فالوا لكى نحلب البقرة يجب أن يتم حلبها فى مكان نظيف مدهون بطلاه أبيض لراحة أعصاب البقرة ..

وثانيا يجب أن تتم عملية الحلب بواسطة خبير فى هذه العملية ويستحسن أن يكون مرتديا قاززا من الجلد الناعم ،

وجلبابا أبيض مقلما فى درجة حرارة أربعين مئوية ، ويجب وضع كمامة على الأنف أثناء عملية الحلب حتى لا يتلوث الحليب

بالميكروبات المختلفة ..

والى هذه اللحظة كان الجميع صامتين .. ولا حركة . ولكن أبو سويلم الحفوى .. حثف فى اذن جاره :

- همه راح يفرقوا علينا كمامات ، هيه الحربى قامت ولا ايه

يا جعدان ؟ !

ولم يدر أبو سويلم الا وصف طويل أمامه يضحك بصوت عال . كان يجلس فى الصف معاون المستشفى ، وموظف

البوستة . ولم يسكتوا الا عندما التفت المأمور الى الحثف .. فعاد الصمت من جديد يخيم على الصالة ، وعاد الدكتور الى حديثه قائلا :

ولكى يكون اللبن مقبدا ومحفظا بكافة المواد الغذائية يجب حفظه في أوان من المعنن ، ويلاحظ تعقيمها قبل وضع اللبن فيها . كما يجب معاملة البقرة قبل عملية حلب معاملة حسنة بحيث لا تتوتر أعصابها فتفسد اللبن ، ويصبح غير صالح للاستعمال . . .

وصممت الدكتور قليلا زيثما تناول شغطة أخرى من كوب الماء التي أمامه ثم تناول متديله الحبريرى ومسح به نظارته السوداء ، ثم أعادها كما كانت وضرب بيده على المائدة . . . وقال في صوت جميل .

— وإذا اتبعتم هذه النصائح فسيزيد مقدار اللبن ، وسيصبح في مقدور البقرة أن تلد وولادة سهلة وميسورة ، وسيزيد وزنها حتما بفعل الراحة والمعاملة الحسنة . . .
وفجأة قفز من بين الجالسين شيخ عجوز في السبعين من عمره ، وسأل في لهفة :

— ياسيدى الدكتور ، احنا راح نستلم البقرة امتى ؟
وضربت لحة مع الدكتور فلم يدر كيف يجيب على سؤال العجوز . ولكنه بعد فترة رد على سؤاله بسؤال آخر :

— بقره ايه ؟ . . .
— البقرة الي احنا راح نعاملها كويس . . .
وايتسم الدكتور ابتسامة هادئة وأجابه :
— البقرة الي عندك . . .
وقال العجوز :
— أنا معنديش بقرة !!

وارتسمت علامات القوار على وجه الدكتور وقال :

— لكن احنا بنتكلم عن الي عندكم بقرة . . .
وظاقت الضالة وارتفع الهمس بين الفلاحين . واحنا حاعندناش بقر ، والى عنده حنة جاموسة عامل أبو على . . .
والنبي يخيب خبيتك الي ما يقول يا عزيز . . . يا عزيز ! . . .
ولم تقلق التفاتة المأمور هذه المرة في إعادة السكون قاضطرا الى أن يرفع صوته « هص . . . هص . . . »
وسكت الناس من جديد . غير أن الضحيج عاد عندما

بدأوا يخرجون من الصالة ، خرج الرجل العجوز أولا ، وتبعه أبو سويلم الحفير ، وخرج خلفه احمد البديوى ، وتصار الأقرع . . . وتسلسل المشرات خلفهم الى الخارج ، وعندما انتهى الدكتور من محاضراته لم يكن موجودا هناك سوى محمد أفندى ، ومعاون البوسطة ، ومعاون المستشفى والعمدة ، وعبدانرسول شحاته . فقد كان قرب المسافة بينه وبين المأمور يقريه بالبقاء . . .
وعندما انتهى الدكتور من محاضراته . صافح المأمور أولا ، ثم مد يده فصافح بقية الموجودين . وعند الباب الخارجى ، تقدم محمد أفندى اليه فأشاد بالخطبة وموضوعها ، وبعلم الدكتور العزيز ، ولم ينس أن يشيد بفضل البيه المأمور فى استتباب الأمن والنظام فى دائرة المركز . . .
وقال وهو يصلح من شأنه جاكنته الكالحة :

— ماتزعلش من أصل بلدنا يادكتور . حاكم دول ناس بهاييم !!

وقال الدكتور فى هدوء ، وشيخ ابتسامة طيبة ترسم على شفطيه :

— لا أبدا ، دول ناس طبيين . . .
وسحب المأمور من يده ، ودخلا العربة ثم مالينت العربة أن تحركت ، وغابت بهما عن الأنظار . . .
وعندما مرت العربة على الجسر ، ونورها يكشفها الطريق الى مسافة بعيدة ، وزووجة من الفتيار تلاحقها على الطريق . عتف الفلاحون الذين يجلسون على حرف الترع فى كسل لذيد :

— دا الدكتور ايه يا جدعان . . .
وقال أبو سويلم على الفور :
— يخيب خبتك الي مايقول يا عزيز . . .
ورد الجميع فى صوت واحد :
— يا عزيز !! . . .



لم يعد هناك مكان لاأكل العيش في الدبل (الجبل)
يافرحان ، فقد حصره الذين كانوا يقدمون العيش للمناس ،
والدبل يبدو الآن موحشا وكثيبا .. لا صوت ولا حركة ..
ولا حتى عواء ذئب ضال .. ويبدو أن الذئاب هجرته أيضا ،
بعد أن تركه الحواجات الانجليز ! ..
وأيام الانجليز يافرحان كانت الحياة سهلة وطرية والنقود
كثيرة مثل مياه النيل وقت الفيضان ، وكانت الأشغال على
جفا من شيبيل ..

ولكن الأفندية التلاميذة عملوا ثورة وأخرجوا الانجليز .
وهو معه الآن مائة جنيته ثمن عرقه وجهده عند الانجليز لمدة
عشرة أعوام طويلة موت عليه وهو يعيش وحيدا في القتال ..
داخل خيمة مثل العساكر الانجليز .. يحمل الطوب والذئش ،
والذخيرة ، ويأكل العيش الفينو ، والبولوييف ، ويشرب البيرة
أحيانا .. وهو يذكر الآن ان رأسه داوت أكثر من مرة في
بعض الليالي التي كان يغرط فيها في الشراب ..

ورفع حسان راحة يده فمسح بها على عينه المسسوحة ،
وغض على شفخته السفلي في حزن دفين .. وشرذ بصر عينه
الأخرى السليمة الى الصحراء العريضة الممتدة امامه من
ناقذة العربية التي كان يركبها في طريقه الى النبل الكبير ..
وعندما تفقح الكمساري في صفارته ، توقفت العربية قليلا ،
وكان فرحان يود لو يستطيع أن يشرب زجاجة قازورة . ولكن
الكمساري الغليظ نهره بشدة ، ورفض أن ينتظره برهة ..
وطوى فرحان ضلوعه على أمنيته .. واستسلم للمصير ..
وعندما انطلقت العربية به على الطريق .. ذكرته معاللة
الناطقة بأول يوم جاء فيه الى القتال بحثا عن الرزق . وهاربا

أيضا من الجوع الذي لوى مصراثة في قريته دراز في اقاصي الصعيد ..

انها نفس الصحراء ، ولكنها اليوم خالية ، وكانت من قبل تشغى بالجنود الانجليز ، وفي هذا المكان بالذات الذي تنطلق امامه العربية ، كان يحمل فيه تسعة أعوام خفرا للبوابة ، يحمل عصاه على كتفه ، ويأمر العمال الخارجين بالتزام الهدوء ، ويفتشهم أحيانا ، ويسوق بعضهم امامه الى مكتب البوليس الانجليزي ، ويقضى وقتا ممتعا مع الجاويش جون .. في سؤال وجواب ..

كانت مهنة جميلة ، ولها سلطة ، ولها أيضا امتيازات ، فهو لم يكن أحد يفتشه ، وكان يحشو جيوبه كل مساء يعلب السجائر والسردين والعيش القثيو . وتنتقل من بوابة الى بوابة .. ووصل اجره في نهاية الامر الى عشرة جنيهات كاملة .. أملة لم يكن يحلم بها .. مثل اللقندية المستوظفين ..

وعاد فرحان يرمش بعينه المسوحة ، فضرب يده في جيبه وأخرج مندبلة المخلاوي الكبير ، فمسحها به ، ثم أطبق على التمدليل بأسنانه . وانحتي تحت الكرسي يبحث عن الشवाल الذي معه ، والذي تعهد اخفائه حتى لا يقع عليه نظر الكمساري .. فيغرمه مبلغا آخر ، أو يحرمه من الركوب ..

واطمأن نفس فرحان عندهما وجد الشवाल في مكانه لم يمسسه سوء ، فاعتدل في جلسته ، وإن كان قد ظل ممسكا بالمدبيل تحت أسنانه ، وعينه السليمة يسرحها عبر الفضاء البعيد ..

كانت الشمس على وشك أن تغطس عند الأفق ، وقرصها المستدير يبدو من خلف أشجار النخيل وكتبان الرمل المترامية على صفحة الصحراء ، وكأنه ركية تاز يتدأ بها بعض الصعابدة الغلاب في حقول الصعيد ..

وأرغش المنظر نفسه ، فقد حدث كل شيء في مثل هذا الوقت منذ أربعة أعوام مضت .. عند بوابة معسكر قنارة . وكان فرحان جالسا عند الباب وعصاه الشوم الغليظة في يده ،

والسبيجارة الجعاري في فمه ، وجلبابه نظيف ، وعمامته مرتبة ، وحذاه يلعب ، وكل شيء معدن .. والحال يسير في طريقه المضبوط ..

وكان فرحان قد فرغ لثوه من تقنيش العمال ، والمزاج مع بعض الجنود الانجليز الذين كانت تربطه بهم صلاة قديمة . ولم يكن أمامه عمل ، فالانجليز كلهم داخل المعسكر .. والأوضاع التي لديه ألا يدع أحدا يدخل أو يخرج بعد الحامسة مساء .. وعسكري البوليس الحربي الانجليزي .. يقف خلفه عند الكشك المدحون باللون الأحمر الزايع ، والذي كان يأوي اليه فرحان أحيانا عندهما تكون الشمس حامية في شهور الصيف ..

ولكن عسكري البوليس الحربي هتف بعد قليل :
- فرحان .. اسمك « اسبح » انته شوقتي كويس أنا موش مزبوت شوية ، أنا شوقتي كتيف ..

وفرحان يجيد هذه اللغة ويحدثها ، وهو أحيانا يشعر بالغرور بينه وبين نفسه لأنه يجيد الانجليزية ويعلق حب الانجليزية له لهذا السبب وحده لا غير ، وهو يطلق على الصعابدة زعلانه لقب « حلالية » لأنهم لا يعرفون الانجليزية مثله ولا يستطيعون التفاهم مثله مع الحواجبات الانجليزية .. ولذلك هب واقفا على الفور .. ورد على عسكري البوليس الحربي :

- انت مزبوط كتير يا انجلش - انته شوقتي كتيف ، أنا شوقتي بوابة .. بعدين كله بييجي تمام جود ، فري جود .. واستنار العسكري الانجليزي وانصرف ، وأصبح فرحان هو الحاكم المطلق للبوابة .. وأمره ينفذ على المصريين والعساكر الانجليزية ..

وحظ فرحان اسود مثل الزفت ، لأن العسكري الانجليزي الوحيد الذي كان متغيبا خارج المعسكر اختار هذا الوقت بالذات لعودته ..

ولكن فرحان لا يمكن أن يترك هذه الفرصة تمر دون أن

يمارس سلطته ، ومن سلطته أن يمنع هذا الانجليزي من
الدخول ..

وعندما هم العسكري بالدخول ، اعترض طريقه فرحان :
- نو دخول يا جورج ، هيه ايه الحكاية ، الخبر ايه معاك ..
.. نو .. فتنش معسكر ..

ولم يتبين العسكري الانجليزي غرض فرحان في يادى
الأمر . فاستفسر منه عن الحكاية ، فأعاد عليه فرحان نص
محاضراته ، ابتداء من نو دخول ، الى فتنش معسكر . وفهم
العسكري الانجليزي في نهاية الأمر ، فأشاح بئزاعه في وجه
فرحان ، وهتف في وجهه صارخا :

- ياللا .. نو جود .. بلادى قول ..

وترجع فرحان قليلا الى الخلف ، فقد كان يعلم بالتجربة
أن الانجليز لا امان عندهم ، وان العسكري قد يقانله فجأة
وبلا سابق انذار ..

وتوقف فرحان بعيدا عن العسكري ، وشوح له بيده في
الهواء ، وقال في حدة ، وفي لهجة الأمر :

- نو دخول يعنى نو دخول . جون .. امشى .. ياللا ..
نو معسكر .. فتنش معسكر . انتة تثنيجة والا ايه ..

وضرب العسكري الانجليزي يده في جيبه فأخرج مطواة
طويلة ولامعة . وارتبك فرحان فلم يدز ماذا يفعل . ان
الانجليز مجانين ، وعم أشد جنونا عندهم يكوتون سكارى ،
والعسكري الذى أمامه سكران طينة ، ولايد أنه سيقاتل ،
والقتال معناه أن يقتل فرحان الجندى أو يقتله الجندى .. وهما
أمران أحلاهما مر ..

وفكر فرحان في طريقة لتبوش العسكري .. وفكر
بسرعة ، واهتنى الى أمر . ورفع عصاه الشوم فوق رأسه
وهدد العسكري الانجليزي ..

- جون .. ياللا ..

ولمعت عينا العسكري الانجليزي بالجنون . ووقف وقفة
استعداد وتحدى ، وسأل فرحان في لهجة هادئة :

- يو فايث .. فايث ؟

وقال فرحان وكأنه يتراجع :

- نو فايث ، جون ، ياللا ..

وأعاد العسكري سؤاله :

- يو فايث ..

وقبل أن يفكر فرحان في جواب ، هجم العسكري عليه ،
وضربه بالمطواة في عينه الشمال ، ولم يفق فرحان الا وعسكري
البوليس الانجليزي الذى كان قد عمده اليه بحراسة البوابة
يحملة بين يديه ليضعه في عربة الاسعاف ..

وعندما أصبح فرحان داخل العربة أتبع له أن يتبين كل
شيء . انه في عربة اسعاف انجليزية ، لأن اللغة التى يتكلم
بها الذين من حوله داخل العربة لغة لايفهمها . ورأسه تكاد
تفجر من شدة الصداح ، وعظام وجهه تكاد تنسحق لهيول
الآلم الذى يحسه ، وجسمه كله ثقل ومريض وكأنه دبابه
ثقيلة تهرسه وتسوى به التراب ..

وهو يريد أن يبكى ، أن يصرخ ، أن يحرى ، ولكنها أمنيات
كلها ، وهو يشعر أنه لا يقوى على تنفيذ شيء منها على الاطلاق

وأحس آلاما شديدة تكاد تفقده عقله في عينه الشمال ،
وعندما رفع يده الى عينه ، فهزه العسكري الانجليزي الذى
كان يجلس بجانبه داخل العربة ، ولكنه استطاع رغم ذلك
أن يرفع عينه الى وجهه ..

وعندما نظر إليها بعينه اليمنى اكتشف ان راحة يده
وأصابعه منخضبة بالدم ، ورجح أن يكون العسكري السكران
قد ضربه بالمطواة في وجهه ، فتمنى له جلد حده الشمال .

وعندما استيقظ فرحان من غيبوبته بعد ذلك بأيام وجد
نفسه داخل مستشفى انجليزي ، ومئات خواتم سساتر
كلهن يحمن في أرجاء العنبر الكبير ، والمرضى كلهم انجليز ،
واكتشف في نفس الوقت أن المطواة التى رأها في يد الجندى
نفضت في عنه الشمال ، وانه أصبح بعين واحدة ، وعينه
الأخرى أصبحت ممسوحة .. ولا حول ولا قوة الا بالله ..

كان المساء قد هبط على الكون ، عندما أضيئت أنوار العربة من الداخل ، فأزعجت فرحان ، وانتزعته ن خواطره ، وحاول أن يبين شيئاً من نافذة العربة ولكنه لم يستطع ، فقال على جاره يسأله عن المدى الذى وصلوا اليه ؟ وعندئذ علم انهم وصلوا الى صواحي القاهرة ، ولم يبق الا دقائق ليدخلوا المدينة الكبيرة التى لم ترها عينه منذ خمسة أعوام ..

وبعد قليل وصلت العربة ، ونزل فرحان واتجه الى أقرب لوكاندة فى شارع كلوت بك ، وكان يود أن يبيت ليلته فى نفس اللوكاندة التى نزل فيها أول ليلة جاء فيها الى القاهرة .. فى طريقه الى القتال ، غير أن التعب الذى لقيه من مخرجة العربة والذى عد جسمه جعله يؤثر المبيت فى أول لوكاندة صادفها ، فهو لم يمكث بها طويلاً ، بل سباحذ قطار الظهر الى الصعيد ..

وعندما استيقظ فى الصباح وحمل شواله على كتفه وخرج الى الشوارع يهرته الزينات القائمة على جانبي الطرق ، والالوف التى تموج بها الشوارع والأتوار المضادة رغم طلوع النهار ، وسأل فرحان عن السبب .. فعلم أن اليوم عيد الجلاء .. وإن الناس تحتفل كلها باليوم ..

اذن من أجل خروج الانجليز يحتفل الناس ؟ .. وهبل يفرح الناس فى المدينة لمرور الانجليز ، انه كان عند الانجليز وشهدهم وهم يخرجون ، ولكنه لا يفرح ولا يظن أن سيفعل ذلك . ومضى فرحان فى طريقه الى محطة السكة الحديد ولكنه لم يفلح رغم المحاولات المتعددة التى بذلها على اجتياز ميدان المحطة . كانت الجماهير الحاشدة على الصفيين تضرب جداراً فولاذياً يصعب اختراقه ، فاضطر الى الوقوف خلف الصنف فى انتظار فرصة تسمح له فيعبر الطريق ..

ولكن الفرصة لم تسبح أبداً . ثم فجأة سمع طويلاً وأحذية تدق الطريق ، وصقوف من الجنود يجتازون الطريق ، ودبابات تكرر ، ومدافع تستعرض قوتها ، وطائرات تنثر فى الجو . وراى فرحان الناس فى هياج شديد ، وأيديهم يكاد يديهمها

التصفيق الحار المتواصل ..

ودقق فرحان النظر الى الجنود ، والى المدافع والى الدبابات ، انها حصرية كلها ، وهو لم يكن يظن من قبل أن فى مصر أشياء من هذا النوع . لم يكن يصدق أن فى مصر عساكر يفتحون الروح ، ودبابات تهن النفس ، ومدافع مثل مدافع الانجليز التى رآها فى القتال ..

كان يجب الانجليز لانه ندهم أنهم وحدهم الأقوياء وكان يعتقد - ولا يدري لماذا - ان الله خلق الانجليز أغنياء وأقوياء ، وانه خلق المصريين فقراء وفتقراء . خرافة كان يعتقدها فرحان والدليل على أنها خرافة .. هذا المجد الذى يراه ..

وألقي فرحان بالشوال من يده ، وصق طويلاً للمصقوف التى راحت تتدقق أمام عينه .. ومضت ساعات طويلة وفرحان واقف مكانه لا يفكر فى أن يتزحزح خطوة رغم الألوف الذين يدفعونه من خلف ومن أمام ..

وعندما انتهى العرض .. كانت عينه اليمنى قد تعبت من شدة ماحق فى الجنود الذين مروا من أمامه ..

وأحس فرحان بالهم شديد فى عينه الشمال . فضرب يده فى جيبه .. وأخرج منديله المحلاى ومسح به على عينه المسوحة . ثم أطبق بإسنانه على المندبل ولقع الشوال على كتفه ، وراح يعبر ميدان المحطة ..

وخطرت لفرحان وهو يعبر الميدان صورة فى خياله ، هؤلاء الجنود يملأون صحراء القتال ، لا رطن ، ولا مطاوى ولن يفقد يفقد أحداً عينه بعد الآن ..

وسيكون الشغل فى الدبل مع هؤلاء الجنود مضسونا . لن يتخاف الذين يعملون معهم من الضرب أو الموت ..

فكرة جميلة لمت فى رأس فرحان سيزور بلده دراو فى الصعيد ، ثم يأخذ أول قطار ليعود الى الدبل .. الى القتال . وسيعمل ريس أفنار عند هؤلاء الجنود .. أبناء بلده ، الذين كان يصق لهم عندما مروا من أمامه تمذ لحطات ..

•• العمارة ••



وقف عوضين يتأمل - ولعابه
يسيل ودمع عينه المعطوبة
ينهمر - العمارة الضخمة
الشاهقة كالهرم الكبير - وفي
لحظة واحدة تذكر كل الأيام
الطويلة التي قضاها هنا - في
العمارة - بحمل الطوب ،
ويتأرجح فوق السقالة ويدندن
بأغانيه الساذجة - في هذه
الشرقة التي يظل فيها الورد

كان يقضى معظم أمسياته يراقب الشاي وهو يقف على النار ••
ومن هذه الساقطة التي تقف فيها البنت الحلوة كان يحلوه له
دائما أن يتفرج على السكارى العائدين الى بيوتهم في منتصف
كل ليلة ، وكان يلذ له وهو يندب منها تتبع الحواجب رجالا
وتساء وهم يخبطون كالأوز الفيومى على الرصيف ••

ونبت عوضين نظره على مدخل العمارة الجميل المفروش
بالقطيفة •• أو ما يشبه القطيفة ، وأواني الورد تتناثر في
أنحائه في نظام بديع •• ولاح على شفثيه شبح ابتسامته
خبيثة ••

ففي هذا المدخل كان عوضين يقضى أحيانا حاجته وأحس
عوضين وهو يقف أمام العمارة بحب جارف لها •• انها جزء
من نفسه ، تماما مثل ابنه الوحيد الذى فقدته منذ أعوام مضت
•• عندما وقفت الحمى الراجعة على الصعيد ••

وانترج عوضين من تأملاته يدا ضخمة امتدت الى قفاه
بصغفة قوية ، وخطر لعوضين أنه ربما يكون واحدا من

أصدقائه يمزح معه • ولكن عندما التفت خلفه راعه منظر
الرجل الذى يقف خلفه كان طويلا عريضا مثل ثور الوسية
منفوش الشارب ، مفتول العضل وكأنه مصارع في سرك •
وفطن عوضين بتجاربه الطويلة الى انه مخبر ، وأن الصغفة
التي رنت على قفاه لم تكن من باب المزاح ، بل كانت بداية
لمعركة يخشاها عوضين جدا لانها دائما تنتهى به الى قسم
الويليس ••

وأقسم عوضين - وهو يكاد يبكي - على أن وقوفه أمام
العمارة ليس بقصد التسول ولا لشروع في سرقة • وانه
عامل بناء ، أقام عدة عمارات من بينها هذه العمارة بالذات ،
وانه عاد اليها لمقابلة الباشمهندس الذى يعمل لحسابه ، والذى
يقطن في الدور الأخير • وفتش عوضين في كل خرق من
ملابسه قبل أن يعثر على العنوان الذى يحمله • وسأل المخبر
بواب العمارة عن اسم الساكن المدون في العنوان • وأجابه
البواب في لهجة سريعة بأن هناك ساكنا في الدور الرابع بهذا
الاسم •• عندئذ رفق المخبر عوضين بنظرة ذات مغزى •• ثم
تركه واتصرف ••

ومصمخ عوضين شفثيه أسفا على البخت المهيب وسوء
الحظ الذى أرقعه في طريق المخبر غليظ الكف ، ولكنه شاء
أن يتجاهل الأمر ، فأطبق على الورقة التي تحمل العنوان
بأصابعه ، هم بافتحام العمارة ، غير أن يد البواب حالت دون
تحقيق هذه الرغبة ، وعندما استوضحه الأمر ، اتى البواب
عليه أمرا سريعا ، فهم عوضين من ورائه أن الباب مسوع عليه
وأن هناك بابا خفيا وجد خصيصا لأمثاله ••

واعتمد عوضين الى الباب بسهولة ، وراح يصعد الدرج
الحديدي بسرعة ، فهي بالنسبة اليه مهنة قد تدرّب عليها
طويلا وعندما وصل الى الشقة التي يقصدها طرق بابها
بأصابعه ، ووقف ينتظر ••

وأطل عليه من طاقة زجاجية وجه أسود غليظ يبدو أن
صاحبه يأكل بغير حساب • نظر اليه متفحصا بعض الوقت

البوابة ..



ثم فتح الباب بعد ذلك ، وقيل أن يستفسر منه عن مقصده
دفعه في صدره بشمعة ونهره بكلام طويل . ثم أشار له في
النهاية إلى الأرض التي يقف عليها ، وعنهما نظر عوضين
إلى حيث أشار تأكد لديه أنه أخطأ ، وأن قدميه الحافيتين
تحملان بقايا طين لفتح البلاط وهو السبب الذي من أجله نار
الرجل الأسود البدين ..

واعترض عوضين بكلمات ساذجة ، ثم مد إليه يده وناولته
ورقة مطوية ، أخرجها من كيس قماش يحمله ، ليس في
داخله شيء سوى عدة أوراق مطوية بعناية ، ولونها استحال
لطول العهد بها إلى صفار ..

وتناول الخادم الورقة في شيء من الاستمزاز ، ثم غاب في
الداخل ولم ينس أن يعلق الباب ويحكم الإغلاق . ووقف
عوضين ينتظر وأصابعه داخل فمه يعض عليها من الغيظ
والحسرة . وبعد مدة فتح الباب وطهر منه الخادم البدين وقال
له في غير ميالة :

- البيه يقولك قول للمقال انه رايح بكره في المغرب .
وهز عوضين رأسه موافقا ، وفتح فمه عن ابتسامة بلهاء .
ومضى يهبط الدرج الحديدى إلى أسفل ..

وخططر لعوضين خاطر غريب سرعان ماقتفه ببطه وهو
يهبط الدرج وزاح بعد السلام ، وعلى وجهه يبدو سرور عميق
وعندما وصل إلى آخر السلم كان قد وصل إلى العمد مائتين .
ثم خرج من الباب الضيق الخلقى وما لبث أن غاب في الزحام

جاء عم حسين كعادته الى بوابة معسكر البحارة الانجليز في بور سعيد . وألقى نظرة من خلال فتحات البوابة الحديدية .. فرأى عدة جنود يذرعون الفناء ، وبأخرة ضخمة تقف عند الرصيف ، والنور ليس ياهرا كما كان في الليالي الماضية ، وثمة صفيح حزين يخرج من فم جندي صغير يتسكع في الفناء واتخذ مكانه المختار بجوار البوابة ، وأخرج رغيف عيش وراح يقضم منه في هدوء ، وهو يرفق بصره بين الحين والحين ليتابع النور الذي كان يتحرك في خط بعيد داخل الصحراء العريضة ..

كان النور يقترب منه شيئا فشيئا .. ولم تضي دقائق حتى سمع عم صوت عربية تكرر على الطريق ، ونورها القوي يكشف أسلاك المعسكر ، والبوابة ، ويكشف أيضا .. عم حسين ..

وظن عم حسين انها « كيسة » فقد كانت طبيعة الأشياء بالنسبة لعم حسين أن يقع بين الحين والحين هجوما خاطفا من دوريات البوليس ، تحفظه وتلقى به على أسفلت سجن بوليس الميناء ، كلما قدم الانجليز شكوى ضد عم حسين !! وعم حسين كان يبدو دائما في حيرة شديدة .. من أمر هؤلاء الانجليز ..

فهم لو يكن يحاربهم ، ولا يعاديهم ، ولا يضمهم لهم شرا . كان ينام فقط في البوابة القائمة أمام معسكر البحارة ، ولو كان لعم حسين بيتا لما نام هناك ..

وحتى هذا .. حتى النوم في البوابة لا يهنا به عم حسين طويلا . فقد اعتاد أن ينام في البوابة حتى السادسة صباحا حين يحضر جندي الحراسة الانجليزي فيلكره كعقب البندقية ، ويأمره بالخروج منها ، ويشتمه ويسبه ، وأحيانا كان يلقي اليه بسبيجارة .. فيلتنظها عم حسين ويمضى الى الحلاء .. وأحيانا كثيرة كان عم حسين يفتح عينيه منزعورا قبل السادسة بدقائق ، وكان يوقظه من نومه كابوس ثقيل ، ولكنه يحمد الله في سره لأنه استيقظ قبل حضور جندي الحراسة ،

وكان يتسلل في هدوء الى الميناء ، وكوزه في يده ، وعيناها تمشح الأرض بحثا عن الأتقاب .. وتوقفت خواطر عم حسين فجأة عندما أصبحت العربية التي ظل يتابعها ببصره وهي عند الأتقاب البعيدة . وسره انها ليست عربية بوليس ، ودهش لانها عربية انجليزية يقودها جندي ، وعلى جوارحه يجلس ضابط حديث السن ، وإمارات القلق تبدو على وجه كل منهما . دهش لأن معسكر البحارة يفلق يابه بعد الساعة السادسة ، ولا تفتح بعد ذلك الا في السادسة صباحا وازدادت دهشة عم حسين عندما رأى أبواب المعسكر تفتح . والعربية تدخل بسرعة الى رصيف الميناء . لا بد أن نظام الكون قد تغير حتى يحدث هذا . إذ لم يحدث من قبل شيء مثل هذا خلال عشر سنوات طويلة قضاهها عم حسين في بوابة المعسكر ولكن دهشة عم حسين سرعان ما فارقت ، فعاد الى رغبته يقضمه في هدوء ..

وعندما انتهى من طعامه ، انقلب على جنبه فنام .. ومرت ساعتان وعم حسين نائم كأنه في شينا لا يدري شيئا . ولكنه صحا فجأة على صوت كركبة داخل المعسكر ، أصوات كثيرة خربت أذنيه وهو نائم كمعجب أحذية تدق الأرض ، ومعجب بنادق وصفيح بأخرة ، ونداءات عسكرية ، لم يستطع عم حسين أن يتبين شيئا منها ، ومرت به وهو نائم يتقلب كأنها حلم !!

وانتفض جسم عم حسين كله عندما ارتفع في الجو صفيح مزعج لبأخرة ضخمة ترحل من الميناء ، وخطر بين أن ينهض من مكانه ولكنه لم يستطع ، كان جسمه مرهقا ثقيل ، وكأنه شوال ممشو بالرمال .. وعنفسها هب عليه هواء الصحراء الرطب نسي الأمر كله .. ونام ..

ومضت ساعات طويلة قبل أن ينتفض عم حسين من نومه مذعورا شأنه في كل صباح .. وغاص قلبه في ضلوعه عندما رأى الشمس تتوسط الأتقاب ونارها الحامية تكوي كل شيء ، وبوابة المعسكر مفتوحة

وحارسها يقف زنهارة على اليمين ، لابد انه انجليزي طيب قلب
يشأ يزعمه او يطرده ..

وفرك عم حسين عينيه ، وراح يحاول في جهد شديد تبين
الاشياء التي أخذت تتراقص أمامه ، لابد انه قضى وقتا طويلا
في النوم ، ولابد ان الساعة قد جاوزت التاسعة صباحا ،
وتصبيه من الاعتقاد لظنه الضيبة والرجال الآخرون ..

واستدار عم حسين مرة أخرى وراح يدقق النظر في وجه
الحارس الذي وقف زنهارة أمام الباب . وانتفض عم حسين
فقد كان وجه الحارس أسمر .. بل شديد السمار . لابد انه
موريشان ، أو جندي من الجنود الافرقيين . ولكن لا ، فسحنة
الواقف عند الباب مصرية ، وهينته عينه ابن بلد ، ولا يمكن أن
تخطيء عين عم حسين .. رغم انها فقدت كثيرا من نورها
القديم ..

وتقدم عم حسين الى الجندي الذي يقف هناك ..
وسلام عليكم ، وعليكم السلام ، يا خير أبيض ، انه مصري
ابن مصري ، بل هو فلاح أيضا .. فهناك فوق صدغه تستقر
حمامة خضراء وديعة .. وفوق صدره العريض تبدو بعض
الشجيرات والسباح ..

ولكن - ماذا جرى ؟ .. هل تغير نظام الكون ..
- ايه الحكاية يا شوايش ، همه الانجليز راحوا .. في
داهية والا ايه ؟ ..

ورد العسكري في هدوء :
- خلاص ، سايبو بر مصر ..
- من امتي الكلام ده ؟ ..
- امبارح بالليل واثت نايم ..
- سبحان الله ، والله بأحسبه حلم ..
ومصمص عم حسين شفتيه طويلا ، وضرب كفا بكف ..
وقال وهو يتمتع :
- والله عشنا لما شقنا .. سبحان الله ..
ونظر الى الجندي الواقف زنهارة في حب شديد ، ثم استدار

على عقبه ، وراح يقطع المسافة بين العسكري والبوابة في
كسل شديد ، وفمه يفتح ويغلق وهو يتنأب في استرخاء
لذيد .. وعندما أصبح أمام البوابة ، ألقى نظرة من بين فتحات
الحديد .. كان هناك عدد من الجنود يقطع الغناء ، سير الوجوه
مثل عم حسين وأمسك الرجل بقضبان الباب الحديدية ، وراح
يتسهم ، وقلبه يخفق بشدة . ان لقد رحل الانجليز الى غير
رجعة .. ياسبحان لله ؟ .. وتهدد بعق ، ثم تنفس طويلا
.. وضرب صدره بقبضة يده المعروقة النحيفة . ثم نظر الى
البوابة نظرة طويلة ، وتنأب عن جديد قبل أن يحني رأسه ،
ويصر من البوابة ، ويفترش الأرض ويروح في نوم عميق .
فلتنتظر اعتقاد السجائر .. مادام عم حسين يستطيع
اليوم أن ينام في هدوء ، وسينام قطعاً في هدوء .. فقد رحل
الانجليز ..

قصة من الجزائر

دق عليها الباب ذات مساء ، وعندما فتحت الباب وجدت ثلاثة رجال يحملون شيئا مجهولا ملفوفا في ثوب قماش . ولم يتحدث اليها أحد ، وكذلك لم ترتفع عين أحدهم لوجهها . بل تحركوا الى الحلف صامتين ، واستندوا على أعقابهم ، وراحوا يقطعون الدرب الضيق المظلم الذي يتصل بين باب البيت والطريق ، وعندما بلغوا نهاية الدرب انحنوا الى اليمين . وغابوا خلف الجدار . . .

وانحنى المرأة على الشيء الملفوف في قماش ، والنسي تركه الرجال المجهولين تحت أقدامها ومضوا . وكانت لمسها الأولى لهذا الشيء كغيلة بأن ترعش جسدها كله لغرط الخوف . . . فقد تبينت بأصابع يدها أن الشيء الملفوف جثة !! . . .

ولكن هذا الاحساس بالخوف زايلها بعد برهة ، فعادت الى نفسها ترقب الدرب والطريق ، وأسطح البيوت المطلة على باب البيت ، ولما تأكدت من خلو الأسطح والدرب والطريق ، قامت ففادت مكانها بسرعة ، واختفت داخل البيت لحظة ثم عادت ومعها لمبة يرتعش ضوءها الأصفر الواهن على الجثة المطروحة فوق الأرض ، وعلى الجدران . وراحت المرأة تعبت بأصابعها في كفن الجثة وهي تجاهد لتسزقه ، حتى نجحت أخيرا ، ونقلت أصابعها الى الكفن ، ولمست جلد الميت البارد السميك . ونلت عن المرأة صرخة مكتومة عتسما أخرجت أصابعها . فاذا بها جميعا مغطاة بدم لزج كثيف .

وتركت المرأة المصباح على الأرض بجوار الجثة ، وأنهالت على الكفن تمزيقا وتشريحا بكلتا يديها . حتى انكشفت الرأس . . . وبأن الوجه مشوها بشعا ، والدماء تغطي ملامحه ، وقد مال كثيرا الى جانب الجثة إذ لم يكن يربطه بها الا قطعة صغيرة من الخلد لم يتمكن السلاح الرقيق من فصلها . وصرخت المرأة كلبؤة فقدت شبلها ، ولطمت وجهها بشدة ، ثم قامت تجرى



وقضرب رأسها في الجدار بعنف كمن تنوى حقاً أن تحطمه .
 لم تمض دقائق بعد هذا حتى ضاق الدرب بالمشاة الذين
 هرعوا على الصراخ بعضهم التفت حول الجثة . والبعض الآخر
 أحاط بالمرأة التي جنت . ولم تهدأ المرأة حتى انهالت في
 اغماد طويلة . حضرت خلالها عربة نزل منها ضابط فرنسي ،
 تبعه جاروش ، وألقى الضابط نظرة على الجثة وقيد أوصافها
 والطريقة التي ذبحت بها ، ثم غادر المكان وتبعه الجاويش ،
 وانطلقت بهما السيارة ثم اختفت . . .

وجاءت بعدها عربة أخرى حملت المرأة ومضت ، وبقيت
 الجثة طريحة الدرب ، ومن حولها عشرات من الناس ، بعضهم
 يتفرج ، وبعضهم يثرثر مضطرباً عن سبب القتل وزمانه .

عند باب المستشفى فوجيء الرجل الذي فتح الباب الخفي
 للعبوة ليحمل المرأة الى الداخل برجل وامرأة يجلسان حول
 المرأة في صمت وثقة . وعندما سألهما ان كانت ثمة قرابة
 تربط بينهما وبين المرأة أجابا بالنفي ، وأضافا أنهما يسكنان
 في البنية المجاور ، وعلى علاقة معروفة بها ، وأصرا على ملازمتها
 في فراشها خلال اجراء الاسعافات الاولية . . . والى أن تفتيق
 وعندما أصبح الرجل وزوجته وحيدين ، والمرأة نائمة على
 فراشها . . . تعانى من الازغاء ، نظر الرجل الى زوجته نظرة
 طويلة وجز رأسه وهو يضغط على أسنانه :

— أنا لا أتصور أنه القاتل ؟ . . .

واختلست لزوجبة نظرة الى المرأة الممتدة ، وعصمت لزوجها :
 — من يدري ؟ . . . انه لا يعمل وحده .

— ولكن طريقة الذبح واحدة . . . أنا رأيت الجثة . . . و . . .
 ولكنه لم يستطع أن يعضى الى أبعد من هذا ، فقد حركت المرأة
 النائمة جفونها ، وتقلبت على الفراش وقد قالت من غيبوبتها ،
 وعندما رأت صديقتهما وزوجها ، ونظرت حولها فتأكدت أنها
 في فراش آخر غير فراشها ، وأنها في مستشفى ، تذكرت
 ما حدث لها ساعة أن دق عليها الباب طارق غريب ، الى أن

رأت رأس ابنتها مقطوعاً بسكين ، والدّم يخشى معالمها ويشوه
 جمالها . وانفجرت المرأة في بكاء عنيف ، وراحت الزوجة
 الصديقة تهتد من روعها بكلمات طيبة . ولا كفت عن البكاء
 تماماً ومسحت دموعها التي كانت تجرى على خديها قالت وهي
 صوتها رنة أسف عميق :

— هل رأيت ولدي كيف ذبحوه ؟ . . . أنت لا يمكنكين
 تصور منظره ؟ . . .

ومرعان ما اخفت رنة الأسف من صوتها ، فارتطم متصدراً
 هائلاً هذه المرة :

— وما ذنب الصبي ؟ انهم يبغون قتلى أنا بسلم الحياذا لم
 يقتلوني ؟ آه . . . هؤلاء الشريرين . . .

كان الزوج وزوجته يستمعان في صمت لبعضهما في ضلوة
 نحو الأرض ، وحين بالغ بسبب عليهما حملاً وعكسهما الكسب
 الطبيب نهض الزوج فصاحه ، واتحبه بهمجهل بالان كالمسجل
 صلة به عندما كان الزوج يعمل موظفاً في مكتبها الصحية قيل
 أن يحال الى المعاش ، ولما أصبح الزوج منتهكاً وبعيداً عن بيت
 المرأة الصابية قال له :

— أرجو أن تكون بخير ؟ بحق سقماً ربة ليسلكه ايه لقدمه
 — انها بخير فعلاً ، ولكن لا يمشي المرنمها اياها في المستشفى
 . . . على الأقل لتكون بعيداً عن الممرضات القادرات على
 بجوارك على ما أظن ، ومعهم قد ليصعب تنال . . .
 — نعم . . .
 — أليس هي غائبة عنك منذ مدة ؟
 — نعم . . .

— أليس هي غائبة عنك منذ مدة ؟
 — نعم . . .
 — أليس هي غائبة عنك منذ مدة ؟
 — نعم . . .

— هي . . . وقد قتلوا ابنتها . . .
 وعندما يناهج الطبيب بنتاً قتلها انقطاعه عن طبيعتها الى الغور
 ودون أن يبدو عليه انفعال ما ، وقال في حياها : هاتلنا ابنتا
 — مسكين . . . وما ذنب الصبي ؟ . . .

— مسكين . . . وما ذنب الصبي ؟ . . .
 — مسكين . . . وما ذنب الصبي ؟ . . .
 — مسكين . . . وما ذنب الصبي ؟ . . .
 — مسكين . . . وما ذنب الصبي ؟ . . .

وكذلك كان حال كل أهل مدينة ، تلمسان إذا كانت قصة المرأة شائعة على كل لسان وحتى المفاوضات التي دارت بينها وبين رسل جيش التحرير قبل أن تحدث المأساة كان الناس على علم بتفاصيلها . والمرأة نفسها كانت معروفة قبل قيام الثورة وخلالها ، فحفلاتها الضخمة التي كانت تعيها لضباط الجيش الفرنسي كل يوم أحد ظلت حديث الناس في المدينة والجبل .

وكانت صلتها بالفرنسيين تأتي عن طريق زوجها فقد كان يعمل ضابطا برتبة كولونيل في الجيش الفرنسي ، ثم سافر على رأس فرقة إلى الهند الصينية ، ولم يعد . وقالوا أنه مقتود .. ربما أسيرا لا يلبث أن يعود عندما تضع الحرب أوزارها .

ولكن أعوام طويلة مضت ولم تنته الحرب ولم يعد زوجها . وإن كانت صلتها بالضباط الفرنسيين أصدقاء زوجها لم تنقطع خلال تلك المدة . وكانت قد أتجبت بعد اختفاء زوجها ولدا

صغيرا كان مولده حديث المدينة كلها . فقد اختلف الناس في الزمن الذي يفصل بين اختفاء الزوج ومولد طفلها . وإن كان الجميع قد اقتنعوا بأن المدة طويلة ، وأن الطفل ليس ابنها من الزوج ، وإنما هو ابن ضابط فرنسي رقيق كان سكيرا ومقامرا وقاميا في الوقت نفسه ، حتى أن ذكر اسمه كان يرعش النفوس بالرعب والخضوع ..

وعندما بلغت تقولات الناس أسماخ عائشة لم تهتم ولم تتكثرت . كانت شجاعة ومتهورة وواقفة من نفسها إلى حد الغرور ..

وكانت إذا فاتحها أحد الأصدقاء في هذا الأمر تجيب في هدوء :

— أنا شخصيا واقفة اتنى لست سيئة ، ولذلك لا أهتم كثيرا لكلام الناس ..

ولكن الأمر كان يختلف مع ادریس موظف مكتب الصحة السابق فقد كان على علاقة وثيقة بزوجها وله في نفسها مكانة خاصة لطيبته وعدم اهتمامه بسوءات الغير وأخطائهم .

فنعنما أشار إلى الموضوع من بعيد وبلباقة فائقة ، أجابته على الغور :

— إن المسألة ليست بالصورة التي يظنها الناس . لقد ولد الطفل بعد ثمانية شهور من اختفاء والده . لأن المرحوم كان هنا في إجازة غادونا بعدها إلى الهند الصينية ولم يعد . ولكن إذا كان الناس والثقن من خطيئتي فلا حيلة لي لاقتاعهم بعكس معتقداتهم . وليؤمنوا بما شاءوا مادمت أنا طاهرة ..

— ولكن الأمور قد تطورت من الحديث إلى العمل . وأنا أخشى الآن من أن ترتكب جريمة ، ولو حدث هذا فلا أحد يعلم إلى أي مدى يكون عمق الضررة القادمة ..

وردت عائشة وقد امتنع لونها من الحوف ربما لأول مرة منذ أن أصبحت سيرتها حديث الناس في المدينة . وقد يكون السبب في ذلك إلى أن الرجل الذي يتحدث إليها من النوع الذي يزن كلامه ، ويضع كل كلمة في موضعها . فلا هو ثورم ، ولا هو من هواة الخدافة .

وجنك سبب آخر فهو صهر الرجل الذي يقود الوطنيون ضد الحوثة داخل المدينة ، وهذه المخاوف التي تثاره لا بد سمعها من صهره أو أحد المحيطين به . ومالت عائشة على ادریس وهمسست ووجهها قريب من وجهه :

— لقد اندرني فعلا بقتل الصبي إذ أنا لم أعلق بابي في وجه الضباط الفرنسيين ، بل لقد صحفني بأن أعادر تلمسان والجزائر كلها . وإلى أين أغادر ؟ .. أنا شخصيا لا أعرف مكانا ألجا إليه . وهب اتنى لم أغادر تلمسان ، هل قرأهم يقتلون الطفل . إنها جريمة .. هل يرتكب الوطنيون الجرائم ؟ — إنها جريمة حقا ، ولكن الجزائر في حرب ، وفي الحرب ترتكب الجرائم ..

وعصفت المرأة شفتها في قسوة ، ثم اعتذلت على الغور ، وقد رسمت ابتسامة كاذبة على وجهها عندما دخل الحجره ابنا . كان في العاشرة من عمره ، وسيم ، مرح ، تنهدل على جبهته خصلة شعر نائرة ، وعندما أقبل على أمه

قضتها اليه ثم قبلها في حب عميق ، استدار ناحية ادريس
فجياه من بعيد .. ثم غادر الخجرة الى حجرته .

خلال الايام التي قضتها الام في المستشفى لزمت الصمت
تماما فلم تفتح فمها بكلمة واحدة . حتى عندما زارها المحقق
الفرنسي في اليوم التالي مباشرة لم تذكر له شيئا مما حدث ،
بل اكتفت بان قالت له علي القور :
- لا اعرف شيئا على الاطلاق . لقد فتحت الباب فوجدت
جثته ..

وحتى عندما زارها ادريس وزوجته لم تدر بينهم احاديث
من التي تعودوها في الزيارات السابقة . بل ظل ادريس
وزوجته يواسيها طول الوقت بكلمات طيبة ، ثم انصرفا
بعد ان وعداها بالزيارة في اليوم التالي مباشرة . واذ يمضي
الزوج بجوار زوجته في الطريق الى المنزل يلتفت اليها فجأة
ويسالها سؤالا مباغتاً :

- هو الذي فعلها .. اليس كذلك ؟ ..

- نعم هو . قال انه لم يكن يملك حلا سوى هذا ..
وقال الزوج في عصبية شديدة :

- ولكن الطفل بريء ، لماذا لم تكن هي ؟ ..

- قالوا ان هذا يجعلها تتعذب أكثر ، أما الموت فهو خير
حل لمشاكلها الراحنة ..

- أنا شخصياً أبيع القتل ولكن بسبب ، والطفل لم يرتكب
ذنبا يبرر قتله .

ولما لم تجبه الزوجة اثر الاستمرار في حديثه فقد كانت
لمسألة بالنسبة له موضوع كرامة ..

- لقد وعدني الا يرتكب هذا الخطأ . أنا في موقف لا أحسد
عليه الآن . انها تستطيع ان تلف حول عنق حبل المشنقة .

لو عرف الفرنسيون بنية الوساطة فرأى ستكون من نصيب
المفصلة . أنا لا أجد سبباً واحداً يبرر سكوتها على هذا
الامر . لو انى في مكانها لقلت كل شيء ، فالعصيبة التي

حدثت لها تزعزع ايمان الملائكة ..
لقد قلت لك ابتعد عن هذه المشكلة ولكنك لم تنتصح .
أنا اعرفهم جيدا ، فهم يفعلون كل شيء .. وأي شيء في سبيل
الجزائر . وأنا خمنت أكثر من مرة - لاصرارك - انك تتدخل
للسبب آخر غير اشتفاقك على الطفل ..
وتوقف الزوج عن السير ، وشد زوجته من ذراعها وقال
محققاً :

- وماذا تعني يا نظيرة ؟ .. هو اتهام بالثأنة ؟ ..

- أنا لم اعني شيئا ، ولكن هذا هو الذي أحسسته فترة
من الزمن وأنت تقضي مهورك عندها لتستمع الى وجهة نظرها
.. ثم تقضي الليل كله معها لتتقل اليها وجهة نظرهم .

- وهل داخلك شك في انني لم أتوسط الا ابتغاء وجه الحق
واشفاقاً على الطفل البريء ..

- ولكنك كنت مقتنعا بوجهة نظرها ..

- وماذا يكون في هذا الامر . هل يكفي اقتناعي ليكون
دليلاً ضد مسلكي ؟ ..

لقد كنت أكثر الناس ألماً لعلاقتها بالفرنسيين . بل كانت
نفسى تمزق عندما أرى الضوء يسبح من نافذتها ، وضحكات
تلمع تعربد في أرجاء البيت .. والاسطوانات الدائرة يتصاعد
صوتها في الجو ، مع صوت الكنوس المترعة . ولكني كنت
مؤمناً أن مسلكها هذا يمكن القضاء عليه بالكلمة الطيبة والضحك
المخلص ، وأنا لا أؤمن بالعنف أبداً رغم انني أكثر الناس الذين
استهدفوا لبشاعة الحكم الفرنسي وحقايقاته . انى على المعاش
الآن وأنا في الحامسة والثلاثين . عاطل بلا عمل رغم
استطاعتي زحزحة جبل . والسبب كما تعلمين انى رفضت
ان أفتح فمي بكلمة ، وكان أخوك في منزلي يوم أن حاجبوا
الديانة ، وقلبوها رأساً على عقب بحنا عنه ..

وإذا انتهى الزوج من حديثه الغاضب ، أخرج عليه سجائره
فأشعل واحدة منها ، ومضى على الطريق الى جوار زوجته ،

وكل منهما صامت يحدق في السماء التي تلمع بأضواء شاحبة ..

أطل أصحاب البيوت الأنيقة التي تقع على جانب الدرب عندما سمعوا صوت عائشة يجالجل في المنزل بشتائم متتابعة توجهها للخادم التي تصنع الذبول . وهذا صوتها قبل أن تظهر في التافذة الواقعة على الدرب ، جميلة في أبيي زينة ، ترتدي روبا ورفقا شفافا أحمر اللون تزينه ورود بيضاء كبيرة . وشعرها يتهدل على كتفها ، وخصلة كبيرة منه تخفي نصف وجهها وتحجب عينيها وتهتز دائما في دلال . كانت آثار اللساة قد زالت تماما عن وجهها ، وعينيها الوحيدة التي تبصر بها الطريق تبدو فاتنة وكأنها لم تعرف البكاء أبدا .

وكان ادريس يقف خلف زجاج النافذة الى جوار زوجته يرقبان عائشة وهي نافذة كالتاوس . وعمست زوجته في تمصص شفيتها :

لا بد أنها فقدت عقلها ..

وهز الزوج رأسه وقال في صده :

إنها تتحدى فقط ، فهي عبدة ..

ولكنها ستفقد نفسها اذا سلكت هذا الطريق ..
إنها لن تسلكه فقط ، بل ستندفع عليه بكل ما أوتيت من قوة . أنا أعرفها جيدا فستفعل أي شيء حتى ولو كان في ذلك قتلها ..

وعندما جاء المساء سبغ منزلها في الأضواء وارتفع صوتها بالغاثة ، وصوت السكاري من الضباط الفرنسيين يغطي على صوتها ، وباتت ليبتها ساهرة تضحك وتشرب وتفتي وتصرخ بأشياء لا معنى لها . حتى أن ادريس عنفما زارها عصر اليوم التالي وجدها مهتمة ، وكأنها أضافت الى عصرها عشر سنوات كاملة . وكانت عيناها متورمتان إذ يبدو أنها يكت كثيرا خلال النهار ، وأنها كانت تقاوم وعينها في البكاء ليلة أمس بالضحك والصراخ واصطفاء السرور الكاذب . وازدادت دهشة

ادريس فقد كانت المرأة رغم مرضها الشديد تبدو جميلة . وبدت في هزيمتها - على حقيقتها - طيبة وحيدة تقاوم في جهد شديد صرخة تكتمها في صدرها بأنها ذليلة حزينة تحس بفراق شديد ، وخوف يتملك نفسها ويكاد يقضى عليها . ولم يشأ ادريس أن يعاتبها بعنف ، بل فكر كثيرا قبل أن يبسط الحديث معها عن ليلة الأمس ..

ولكنها فجأة انتفضت نائرة مثل اللبوة ، قد زابلها شعورها بالذلة والوحدة والفراغ ، وردت مزهوة :

- وماذا فيما فعلته بالأمس . لقد كنت أفعله قبل ذلك ، فما وجه الغرابة إذن ..

- أغلظ ظني انك لم تقمليه رغبة في فعله ، ولكن ظروف عصبية تتحكم في الموقف الآن ، وأرجو أن قرأني الظروف . إن الظروف لانهمني أبدا . وقتل الطغلق لن يوقني عند حدي . أنا أحب الفرنسيين وعلى علاقة صداقة بهم . والحرب لانهمني ، وأنا لا أحس احساسا ما نحو الجزائر . فانا لم أستقد شيئا لاني جزائرية . كما أن الجزائر لن تستفيد شيئا من ذلك ..

- أنا واثق انك لا تؤمنين بهذا الكلام ، انها مجرد ثورة أنت فيها على حق ، فانا أقدر شعورك وأحترم ارادتك أيضا حتى ولو كانت تجافي الصواب . ولكني أرجو مخلصا أن تتحكمي العقل ، فانا أخشى أن يتطور الأمر ، وعندئذ ...
وعرض ادريس على أصبعه بفيظ ، وصمت فلم يتكلم ، فقد كانت المرأة قد مالت برأسها الى الأرض ، وهي تتمشج بالبكاء في صمت أول الأمر ، ثم مالبت صوتها أن ارتفع بالحسب ، وجسمها الطرى أخذ يهتز كله اهزازات عصبية سريعة . وظلت كذلك فترة طويلة دون أن يحاول ادريس منعها ، فقد كان يعلم بتجربته الطويلة معها أنها ان اندفعت في شيء فانها لا تتوقف الا اذا كلت تماما واستنفدت قوتها ..

كانت هذه آخر زيارة لادريس لها في بيتها . فقد اندفعت

المرأة المصابة بكل قوتها تحدى أهل المدينة جميعا ، وتفتح بيتها كل ليلة للرحلات ، حيث تجتمع عندها شلة من أحرار ضباط الجيش الفرنسي وقواده ..

ومن جهة أخرى كانت الأمور قد تازمت تماما وإنذعت فتحت من سيء إلى أسوأ ، وازدادت القيود التي فرضها الفرنسيون على أهل المدينة حتى صارت تلمسان وكأنها محاصرة ، فلا دخول ولا خروج ومعطيات المراقبة تقتض كل عابر سبيل ، وحملات يومية تسفر عن القبض على الكثيرين ، وأحكام بالاعتدام تصدر بالجملعة وأخرى بالسجن ، حتى أصبح في كل بيت في تلمسان ماتما لا ينتهى ولا ينقش ..

وشغل ادريس بنفسه وبزوجته . وفكر في الهروب من تلمسان كما فعل الآخرون ، ولكنه كان محاطا بالعيون ترقب تحركاته ، فعن طريق ادريس يمكن معرفة الذين يذهبون

الخونة داخل المدينة . ولكن ادريس لم يكن يهتم بنفسه كثيرا ، كان همه كله زوجته . كان يعمل سرا لأخراجها من تلمسان ، ولم يكن أحد يستطيع أن يقوم بهذا العمل سوى شقيقها .. الرجل الذى يقود الوطنيين الذين يذهبون الخونة داخل المدينة ..

ولما كانت مقابلته لصبره لازمة ومستحيلة في الوقت نفسه فقد فكر طويلا في طريقة للاتصال به لا يمكن أن تخطر على بال الجواسيس الذين انظفوا خلفه . ولكن ما هي الطريقة ؟ مسألة تكاد تنفد رشده .. فالأمور تبدو سيئة لدرجة أن الفرنسيين قد يدمروا المدينة غدا انتقاما للهجمات المروعة التي يشنها جيش التحرير على الجسود داخلها . ولكن متى أسبوع دون أن يجد طريقة ما . وفكر في أن يذهب بنفسه ليقابل صبره على ما في هذا العمل من أخطار قد تعرضه للموت . والموت بالتسبة لا يعوقه عن انمام المهمة ، ولكنه يخشى أن يصطاد الفرنسيون صبره ، وعن طريقه يمكن اصطاد الجميع .. مشككة تكفلت بحلها الظروف فقد انسحب الفرنسيون من المدينة وحاصروها ، وأنشروا السكان

بالإدلاء بمعلوماتهم عن « مثيري الشغب ومرتكبي الحوادث الإجرامية » وحددوا لهذه المهمة سبعة أيام كاملة . فإذا اقتضت دون نتيجة دخلوا المدينة وقد أحبوها لأنفسهم ، ولكي يزيقون الأمر روعة فقسيد أعلنوا في انذارهم أنهم سيحبسون المدينة لجنودهم ، وستطلق لأيديهم حرية التصرف للقبض والقتل والتفتيش ..

وأحدثت الانذار فرعا داخل المدينة . ومضى الناس يبحثون لهم عن طريق يسلكونه الى خارج تلمسان قبل أن تبدأ القارة ومات المئات عند أبواب المدينة وهم يحاولون الفرار منها الى الجبل . وبقي القليل عادئا يفكر في المسألة بعمق . ويحاول أن يجد حلا مناسبا لها ..

اجتمع الرجال الذين اختارهم المدينة بالانتخاب لتقرير مصيرها في اليوم الثالث للانذار ، ليبحث الجميع عن حل لمواجهة الموقف . والتقى بعضهم كلمات قصيرة . واكتفى بعضهم باقتراح الحلول التي يراها مناسبة للموقف ، وعندما جاء الدور على ادريس صنف في عدوه وثقة :

- يجب البقاء هنا والدفاع حتى الموت عن المدينة . وأخذ بعضهم الاقتراح على أنه صادر عن عاطفة حماس شريفة ، وأنه غير ممكن التنفيذ . لأن تنفيذه يكلف تلمسان حياة أهلها جميعا . فالفرنسيين لا يرحمون ، وهم انوجدوا مقاومة فسيعمقون الى ابادته كل شيء .. وصحح تلمسان من خريطة الجزائر ..

ولكن ادريس لم يشأ أن يترك تصبير اقتراحه لتكهنات الغير . فأخذ يشرح الأسباب التي دعتة الى هذا في عدوه شديد ، والكلام نصت له في اخلص وصدق :

- ان البقاء هنا داخل تلمسان قد يعنى الموت لنا جميعا . هذا صحيح . ولكن ائى اقتراح آخر لا يقلل عن اقتراحي هذا خطورة ، وإن كان يقل عنه شرقا لا نرضاه نحن أهل تلمسان . ولو كان الهروب متيسرا لاقترحنا هذا ، ولكن كل الذين

حاولوا الهرب لقوا حتفهم وهم بعد عند أبواب المدينة ، وهنا
الأمم ضعيف لو بقينا في أن نتنصر ، ولكن الأمل يتفقد
تياها في أن نجوا لو حاولنا الهرب ..

كان يتكلم وكأنه مدرس يشرح درساً في التاريخ يعرف
لغاصيله ، ويثق في حقيقته ، لم يتعلم ولم يخطئ ولم يتوقف
لحظة خلال الحديث . وعندما انتهى منه كان الجميع قد وافقوا
على الرأي .. لسبب بسيط هو أنه لم يكن هناك رأى غيره .

كان يتكلم وكأنه مدرس يشرح درساً في التاريخ يعرف
الاجتماع الى بيته . والدنيا صيف ، والجو بارد ، والريح تهب
من ناحية البحر وتهز اشجار الزيتون ، فتفزع ليزتها أنتي
البط ، واسراب البجع المهاجرة نحو الشمال هرباً من القبط
ورائحة اشجار الزيتون تعبق في جو تلمسان ممتزجة برائحة
الكروم التي تعفنت على التلال المحيطة بالمدينة . كان ادريس
يحس بالراحة تسرى في بدنه فقد أدى خيراً ما يستطيع لوطنه
في أحلك ظروفه . وهو يشعر بالرضاً لأنه سيموت ميتة
كان يمتناها .. سيموت في المعركة . وهو لا يد ميب ، فخير
عناصر هذا الشعب سيموت . ومنازل الأرض ملايين الناس
في الجزائر قبل أن تشرق عليها الشمس دون جنود فرنسيين ،
وهذه الأرض التي يشي عليها ستتحوك الى مقبرة ضخمة

كارض الهند الصينية قبل أن تتحور ويرتفع رأسها من الطين
الذي غاصت فيه . ولكن هل كان مصيباً في اقتراحه بالبقاء
والقاومة ، وهل يستطيع كل انسان في تلمسان على البقاء
والقاومة . ولماذا لم يترك الحرية لكل انسان أن يهرب أو يقاوم
حسب ظروفه . أو ليست أنانية منه أن يقترح المقاومة . انه
يحس الآن صادقاً انه لم يقترح ولكنه كان يأمر . فقد كان
عقله الباطن يتحكم في لسانه عندما تكلم ، وهو نفسه كان
يعلم قبل أن يبدأ الكلام أن موقفه يحتم عليه البقاء والمقاومة ،
لهذا السبب اقترح المقاومة . مادام هو سيقاوم فليقاوم
الجميع . وزوجته نظيرة .. انه لا يطيق أن يراها جثة . بل

هو لا يتصور هذا أبداً . ولابد من اخراجها من تلمسان
بأية وسيلة . فلو حدث الهجوم وهي في المدينة لكانت كارثة
انها صغيرة وجميلة وشعبية ، وستكون هسف الجميع وقت
الغزو . هذا لا يمكن أن يحدث أبداً ولو اضطر الى قتلها خنقا
بيده ..

افاق ادريس من خواطره وهو يقبب داخل الدرب في طريقه
الى منزله . وارتفع بصره فجأة وبحركة تلقائية الى شقة
عائشة . قال في الظلمة تخيم عليها . ولا صوت هناك ولا حركة
وتذكر ادريس أن صوتها لم يسمع منذ أيام طويلة حتى قبل
أن يغادر الفرنسيون المدينة . وحشى أن يكون قد أصابها
مكروه فقطع الطريق الى منزلها ، وطرق الباب في عنف .
وقتح الباب بعد مدة .. وكانت هي التي فتحت الباب بعد أن
تأكدت من شخصية الطارق . ودعته الى الدخول فدخل على
النور وهو ينقل خطواته في اعياء يصعد درجات السلم المؤدى
الى مسكنها ..

وعندما أصبح امامها ثبت بصره عليها بتعرس فيها طويلاً .
كانت المرأة التي عرفها زمناً طويلاً قد اختفت وحلت محلها
أخرى بعيدة كل البعد عنها . فقد بدت غينانها متفرحتين من
آثر السير والبيكاء ، ورموشها تاكلت ، ووجهها الذي كان
مستديراً أصبح بارز العظام ، تانثرت فيه الكدمات والجيوب
حتى ليبدو على صاحبته أنها قد تجاوزت عامها الخمسين
يكثير . وعندما نظرت اليه بعينها بدأ فيهما أنها تعاني
صراعاً رهيباً منذ أيام . ولم ينر ادريس ماذا يقول لها ..
وهي على هذه الحالة من البرؤس والهوان . وفكر في أن يستأذن
عادداً بأسرع مما جاء . ولكن نظرتها التي كانت تنطق بمعاني
التوسل والرجاء ربطته على مقعده فلم يستطع أن يتحرك .
واذ هدأت المرأة قليلاً رفعت رأسها نحوه وراحت تنظر اليه
ثم قالت فجأة :

— حتى أنت ؟ ..

وتلمبل ادريس في جلسته دون أن يتلق بحرف ، فقد

كانت العبارة التي نطقت بها عائشة تنضح بالسخرية . وكان منظر وجهها وهي تنظر اليه ، ويريق عينيها اللامع ياكلان أعصابه التي شدتها الكوارث المحيطة بالمدينة ..

ومضت عائشة تقول في نفس نبرة الصوت الساخرة :
- لقد كنت دائما متبوءة ، ولكن هذا لم يخطر لي أبدا بالنسبة لك . فانت الوحيد الذي تفهم موقفي ، وأنتك تقدره وسنحت الفرصة لإدريس لكي يتكلم ، فقد بدأت عائشة موضوعا يرثب هو في أن يتحدث فيه :

- بل انني أفهم موقفك وأقدره فعلا . انني أشعر بأسف شديد لما تطورت اليه الأمور أخيرا . فقد كان مسلكك بعد الكارثة غريبا حتى انني لم أفهمه ..
- انك لم تفهمه .. لانك لم تحاول . لقد أصبحت أنت الآخر تحشى المحرمين مثل الآخرين ، وأنا أعذرك ..

تصاعد الدم الى وجه ادريس وبدأ غاضبا محنقا . ولكنه استطاع رغم هذا كله أن يكتم سخطه ، بل استطاع أكثر من هذا أن يرسم على شفاهه ابتسامة باهتة . وتشاغل بالشمع سيجارة راح يدخنها بلذة وبهبة شديدة . واذ عدت المرأة من جديد وسنحت الفرصة مرة أخرى لإدريس بالمحديث فقد نطق على الفور قائلا :

- أنا لا أخاف أحدا بعائشة وانت تدركين معنى ما أقول ، ولو أن أخوف يعرف طريقه الى قلبي لما كنت الآن هنا في تلمسان أستعد لتلقى الضربات القاصمة . غير اني كنت دائما ضد النهور ، حتى في حربي للفريسيين ، فانا أختار أعدائي أولا ، ثم اتعمق في القضية التي أعاديين من أجلها ، وموقفك الأخير كان مضموحيا بالنهور فقررت أن أتعد .

- ولأنك ضد النهور فقد اتهموك بالحيانة أنت الآخر .. وانتفض ادريس غاضبا وبدا كأنه وحش غاص في جسمه فصل حاد من الخلف ، غير أن هذا المظهر الذي ارتداه لم يستمر سوى لحظة ، اعتدل بعدها في جلسته حتى رجع الى حالته الطبيعية . وقال في صوت أكثر ارتفاعا وأشد حزما :

- ان أحدا لم يتهمني بالحيانة يا عائشة ، ولا يجروا كأثما من كان على ذلك . ولقد قطعت رحلة الحياة ماضيا كالسيفلم انحرف لحظة لا ناحية اليمين ولا ناحية الشمال . وأنا من النوع الذي يقتل نفسه بيده لو شأيت سمعتي في الحياة أية شائبة ، انيا رصيدي كله وأنا لا أملك شيئا سواه ..

وضحكت عائشة ضحكة جميلة بدا وجهها خلالها باهرا كالعهد به . وتجو ادريس في أمر هذه المرأة التي تجسد في نفسها رغم كل الظروف المحيطة بها مكانا تنتزع منه ضحكة جميلة كهذه التي ردت من فمها منذ لحظات . وعندما عاد الى نفسه وجدها جالسة في مكانها هادئة كما كانت ، مستسلمة كقطعة عجز . فسألها في حنان ..

- لقد كنت محتجة خلال العشرة أيام الماضية ولكنني لم أتذكر ذلك الا منذ دقائق وأنا أقطع الدرب عائدا من اجتماع عاصف أصابني بالغوار .

ولقد حدثت وقت أن رأيت الظلام يخيم على المنزل أن مكروها ما قد أصابك ، فانا لم أتعود منك الانطواء . أم ترى أنها خطة جديدة مستعربين على هديا في الحياة ؟
- ليس عندي خطط جديدة يا ادريس ، ولكن الأمور تبدلت كثيرا الآن ..

ولما لم يفض الى ما قرهه اليه ، فقد أجابها على الفور :
- حقا ماتقولين . ان الجزائر تستعمل بالنار ، وغدا ستمتد هذه النيران ، وستمتد المستنشا في الفضاء البعيد . ان المعركة المقبلة ليست لتسهر ، ولا عام . انها معركة مريرة سوف تضي بنا سنوات طويلة مريرة ، وقد تضي علينا ..

وبان الاهتمام الشديد على عائشة وهي تكلمت اليه . لم تكن خائفة ولكنها كانت تبدو قلقة . وراحت تقرض أظافرها الطويلة التي تحمل آثار طلاء مضت عليه أيام كثيرة . وقاطعتة متعجبة :

- إذن لقد حدثت أشياء جديدة لم أسمع بها ؟
- انك تعرفين بالطبع قصة الإنتار الفرتسي . والرعب الذي

اجتاحت المدينة . والمئات الذين صرعههم رصاص الجند على التلال
القريبة من هنا !! ..
وإذ أجابت عائشة بالإيجاب ، مضى ادريس مواصلا الحديث
فانثلا :

— لقد مر على تلمسان منذ أيام صحفى مصرى قادم لتوه من
القاهرة . كان معه تقرير عن الخطوات القادمة التى تنوي فرنسا
اتخاذها ضدنا . ان نظرة واحدة على التقرير تكفى لتستعمل
وأمسك شيئا وتسكت ذقات قلبك المتناجعة ..
— وماذا قررتم اذن ؟
— المقاومة حتى الموت ، لا جدوى من أن نعالج الموقف عن
طريق آخر ..
— وارتسمت ابتسامة لطيفة على شفתי عائشة وهى تسأله
مستكورة :

— ولكنى اراك قد خرجت عن نطاق الخط الذى رسمته
لحياتك . انك تكره العنف كما قلت ، وتكره التهور . وهذا
القرار الذى اتخذتموه اليس فيه تهور ؟ هل فكرتم فى موقف
النساء والأطفال اذا اشتعلت المعركة ؟
— فى الحقيقة لم نفكر فى شيء من هذا ، لقد تركنا للظروف

أن تصرف بنا كما تشاء ، واقول لك الحق أنتى ما ندمت على شيء
فى حياتى قدر ندمى على الأيام التى مرت منها وأنا أتصنع
التعقل والزم جانب المنطق . لقد كان الواجب علينا جميعا أن
نتهجر منذ البداية ، ولن تكسب الجزائر المعركة حتى يتهور كل
فرد من بنينا . لقد اكتشفت الآن وبعد فوات الأوان ، أن
التهور فى محاربة الفرنسيين .. غاية التعقل والمنطق .
لقد خسرنا حتى الآن الملايين من الأرواح وخسرنا كذلك
سنتين طويلة .

ولو أننا انقمنا جميعا وتهورنا كلنا ، وفقدنا أضعاف
مافقدناه ، لكننا قد كسبنا المعركة ، وكسبنا الوقت الذى ضاع
.. والذى سيضيع .. ولكن لا داعى للأسف الآن ، فالحوادث
تصنع نفسها ، وقد صنعت بنا هذا الموقف ، ولكننا سنحاول

جهدنا أن نتحكم فى صنعها ، ونخضع كل الظروف لنا .
بنا ادريس وهو يتكلم شخصا آخر غير الذى تعرفه . وهذه
النصبة التى تسمعها منه لم تسمعها يحكى مثلها ..

كان يبتز وهو يتحدث وكانه يطلق أكتار فى معركة . وعيناه
اللتان كانتا نصف مفلقتان أبدا قد اتسعتا ، ونظراتهما أصبحتا
أكثر حدة وأكثر جراءة . وكانت عائشة تصفى اليه وكانها
تنصت الى أسطوانة موسيقى تجهها ، كان صوته زغم مائيه من
حنق موسيقيا ليقع الوقع على سمعها ، يبدو ان كل شيء فى
الجزائر قد تبدل حتى ادريس .. وحتى نفسها ، وشعرت
عائشة بتعب شديد يهد كيانها ، فنهضت وسارت الى البار
الذى يتوسط الردهة ، وأخذت لنفسها كأسا ولادريس كأس
آخر زغم يقينها أنه لا يقرب الحمر أبدا . وكانت دهشتها شديدة
عندما مدت له الكأس بيدها فاختطفه فى شوق ، وعب ما فيه فى
جوفه دفعة واحدة ، ثم ترك الكأس يسقط من يده ، وأسند
ظهره الى الحلف ، ومد ساقيه على أرض الغرفة . وعندما انحنى
عائشة لتلتقط بقايا الكأس المهشم هتفت فى صوت خفيض :

— لقد تغير كل شيء فعلا يا ادريس . ولم ينيس ادريس
ببنت شغفة ..

عندما استيقظ ادريس فى الفجر ، اكتشف أنه لا يزال مكانه
على المقعد العاخر فى منزل عائشة ، واكتشف كذلك أنه شرب
أكثر من كأس وأنه ثمرى بكلام كثير لم يكن من اللائق أن يتقوه
به . واذ هم بالنهوض ومغادرة البيت كله على أطراف أصابعه ،
فجاء صوت عائشة يتردد بين جدران الردهة عاليا كالعهد به .
فعاد الى مكانه وقد أغلق عينيه متصنعا النوم . وعندما هدأت
الضجة فى الردهة ، عاد ففتح عينيه نصف فتحة فإذا بها
متنصبة أمامه ، حميلة مثل الحياة منيرة مثل القمر . ورفعت
يدها فمسحت برأحتها على شعر رأسه فى حنان وهى تقول :

- لشد ما غيرتك الاحداث يا ادريس ، من كان يظن أن في استطاعتك أن تفرغ عشرة كنوس في جوفك مرة واحدة .
وأحسن ادريس بعد هذا بالصداق يصفط على عظام رأسه بقسوة لم يحس مثلها من قبل ، وبالم في معدته بلوى أمعاء ، ويدفع بها الى أعلا مكانها تجاهد منتشبة في مكانها حتى لا تخرج من فمه . ولما كان في حالة لا تسمح له بالإجابة فقد واصلت عائشة حديثها قائلة :

- انني لا اتعدى الحقيقة اذ قلت لك أن الليلة التي مضت كانت بمشابهة خط وهمي كخطوط العرض والطول شطرت حياتي كلها . اني أحس احساسا صادقا أنني ولدت من جديد . وكان من الممكن أن يتأخر موعد هذا اليوم لو تأخر مجيئك الى هنا ، وكان من الممكن كذلك أن يتقدم لو أسرع الى من اليوم الأول الذي لاحظت فيه أن الظلام يخيم على منزل .

كانت تتحدث كمن تخفي في صدرها سرا رهيبا تريد أن تتخلص من كتمانها .
وكان الاعياء قد امتد يد ادريس حتى لم يعد راقبا في أن يستمع الى شيء آخر .

كان يود لو استطاع أن ينهض من مكانه ويهرب بعيدا عن المنزل وعن الدرب وعن تلسان كلها . ولكن حتى هذه الرغبة لم يعد يقوى على تنفيذها . فعائشة تجلس أمامه تحكي وكأنها مصممة على أن تحكي الى النهاية . وتور الصباح يغير السكون كله ، ومن الجائز الآن أن يراه أحسد وهو خارج من منزل عائشة ، والحالة التي هو عليها تبيح لكل ذي عقل أن يتصور ما كان يدور بينه وبينها . وآثر ادريس أن يبقى في مكانه يستمع اليها ، فهذا شرا هوون بكثير من أن يغادر المنزل هاربا . ولم تكن عائشة تنتظر منه جوابا أو إشارة لكي تضي في الحديث ، بل ظلت تتحدث رغم عدم الاهتمام الذي يبوع عليه . فقد كانت تريد أن تتحدث حتى ولو تأكدت من أنه لا يسمع حديثها أذنا وافية .

غير أن ادريس في حقيقة الأمر لم يكن منصرفا بكليته عن المرأة التي جلست أمامه تحكي له . بل كان ذهنه المشتت يغيب عنها أحيانا ثم يعود اليها في فترات متقطعة . وفي هذه المرة الأخيرة التي عاد فيها بذهنه ويسمعه ان المرأة التي تحكي بلا توقف ، وملامح وجهها تكاد تنفجر من الغيظ وكأنها تؤذي واجبا ثقيلبا على نفسها ، كانت قد وصلت في القصة التي تسردها عليه الى احداث غريبة جعلت ادريس ينتزع نفسه من الغيبوبة التي احتوته لينصت اليها بكل جوارحه .

- كان الضابط التمل يجلس هنا مكانك ، تماما كما تجلس أنت الآن . وكان يحكي القصة بسذاجة وكانني على علم بتفاصيلها . حكى في البداية كيف كان زوجي يجلس في الحانة التي تقع في مواجهة الميناء في الهند الصينية يحسني قدما من البيرة عندما اقتحم عليه الضابط الفرنسي الحانة ، ومسده في يده . كان الضابط التمل الذي حكى القصة هنا يشهد المساة من بدايتها . وقف الضابط الفرنسي أمام زوجي ينتفض غيظا وحقا والشتائم تندفق من فمه :
- لقد أقدمت ايها الكلب القذر على أنك لن تجد فرصة تهنأ فيها معها .
لقد اختلطتها بيجن ولذلك فسأقتلك .

ولم يتحدث زوجي المسكين ولم يرد عليه . وفي جنون بالغ أطلق الفرنسي التمل نيران مسدسه . تسقط زوجي يتدحرج فوق الأرض ملطخا بدمه . وأمر الضابط جنديا كان يقف خلفه فحمل الجثة وألقى بها في مياه الخليج ، ثم أمر الجميع بالتحرك نحو الجبهة ، فقد كان القتال قائما للفرقة التي يعمل فيها زوجي وكانت الفرقة في طريقها لتقاتل في الخطوط الامامية .

ومن هناك أرسل خطانا الى القيادة العليا يبدى فيها أسفه الشديد لفقد الضابط مصطفى بن جعفر .

ومن القيادة وصلني خطاب بنفس القصة الملققة .
زوجك فقد في الجبهة . وهو يقاقل أعداءنا بشرى .
وعندما وصلت الى هذا الحد من القصة نشجت بالبكاء .

والقت برأسها على راحة يدها ، ودموعها أخذت تنهال على خديها
غزيرة مثل العرق ، حمراء في لون الدم .

وصعق ادريس من هول ماسمع ، ونهض من مكانه وأسأناه
تضغط على شفته السفلى في قسوة وفي شدة ، وانحنى الى
حوار المقعد الذى غاصت فيه عائشة وقال يسألها فى لهفة :

— اذن لقد قتلوه ؟!

وهزت عائشة رأسها واكتفت بذلك ..

لم تستطع أن تتنطق فقد خنقت الدموع كلماتها فى حلقها ،
ثم لم تلبث أن انفجرت مولولة فى صوت أشبه بالموء ..
ومد ادريس يده اليها فأمسك براحة يدها وضغط عليها فى
عنف وسألها وقد مال عليها :

— ولكن لئى سبب ، لماذا قتلوه ؟ ..

وأجابته المرأة وهى تبكى :

— لا أدري شيئا ، ولم أسمع منه أكثر من هذا ، كل الذى

أعرفه الآن أنهم قتلوه .. قتلوه ..

وإذ وصلنا الى هذا الحد ، كان جسمها قد أخذ يهتز كله ،
وروجها أصبح محتقنا بلون النيلة ، فلطمت وجهها بقسوة
وبعنف ، وصرخت فى ادريس وكأنها جنت :

— أنهم قتلوه .. هل تصدق ؟ ! ! ؟ ..

وقال ادريس فى هدوء :

— لم يعد هناك شيء من تصرفات هؤلاء الناس موضع شك
يا عائشة .. أنهم يفعلون كل شيء بنا ، نعم كل شيء .. حتى
ما لا يعقل وما لا يصدق بحال ..

ومد يده اليها بمندبيل لتمسح بدموعها ، فأطاعت على الفور ،
وراحت تحفف وجهها المثلث المحتقن ، وإذ هدأت قليلا قالت
وهى شبه شاردة :

— أما أنا فلم أكن أصدق .. لقد كانوا دائما مهذبون هنا ،
لم أتصور أبدا أنهم يرتكبون الجرائم ، بل لقد دفعنى الايمان
بهم الى حد تكذيب كل ما كان يقوله أهل تلمسان عنهم ،
لم أكن أصلق حرفا واحدا عنهم يا ادريس ، إذ لم يسكن

مستساغا أبدا أن أصلق أن هؤلاء الرجال المهذبين ، يمكنهم

أن يرتكبوا الجرائم ..

وعندما وثق ادريس أن المرأة المشتعلة حقدا وحرنا قد هدأت
تماما ، نهض من مكانه الى البيار ، فملا كأسا لها .. ناولها اياه
ثم قال قبيل أن يعود الى مقعده :

— كنت أذن واعية فى طنك ، ان المآرد منهم ينصرف برشاقة
وأدب عندما يكون فى حفلة واقصة ، ولكنه فى الحرب يتحول الى
ذئب ، الى نمل ، يطمنون عليه لقب بطل ، وكلما أوغل فى
الندالة ، ارتفع فى أعين الذين يشيدونه من خلف بخيوط لا ترى
انهم وباء يجب مكافحتهم فى كل مكان يظهرون فيه ، ولا أعرف
سببا واحدا مقنونا يجعل الناس يدفعون كلما ظهرت بينهم
حالة حمى واحدة ، ويجعلهم يتصرفون ببساطة كلما ظهر بينهم
جنود من هذا النوع .. أنهم أخطر علينا من الحمى وأشد
فتكا بنا ..

كانت عائشة تجلس مستسلمة وقد أراحت رأسها على
راحة يدها اليسرى ، بينما راحت تمزق خيوطا رفيعة من طرف
ثوبها فى عصبية وقلق ، عندما سألتها ادريس ببساطة :

— وماذا عنك الآن للمستقبل ، هل تنوين البقاء هنا ؟ ..

وأجابته عائشة وقد بدا عليها الاهتمام :

— أنا بصراحة لم أفكر فى هذا الأمر من قبيل ، ولا أدري

ماذا يجب على أن أفعله ..

— ان الامور واضحة تماما والجهة التى يجب أن تكونى فى
صفها ليست بعيدة عن هنا ، ما عليك الا أن تقررى بسرعة
وحرية ، فانا أرقص أن أقرض عليك حلا أو رأيا مخالفا ..
ونظرت اليه عائشة نظرة طويلة ، أحس ادريس أنها عوته من
ثيابه ، وغاصت فى أعماقه ، ثم قالت وعينها شائختان اليه
فى ثبات وهدهد :

— قلت لك اننى لم أفكر فى هذا الأمر من قبيل ، لانه

لم يعد يعنينى فى قليل أو كثير أن أموت الآن أو غدا ، لقد
فقدت كل شيء كما ترى ، ولم يعد عنى ما أفقده ..

وأجاب ادريس في حزم :

- لم تفقدي شيئا كثيرا يا عائشة ، لقد فقد كل منا أشياء من هذا النوع .. ولكن بقى لنا ما يجب أن نحرص عليه ونعزز بأنساننا ، بقيت الجزائر لنا وعلينا أن نحرص عليها ..

وغضت عائشة من بصرها ، وأخذت تهز رأسها في فتور ووهن ، ومضى ادريس في حديثه بنفس الهمجية المازمية :

- أخشى أن يكون خديتي في نفسك وقعا شيئا ، فقد سمعتك مرة تقولين في ثورة شديدة عقب ذبح الطفل « أنا لبست جزائرية ، ولم أستفد شيئا لأنني كذلك ، ولاظن الجزائر تخسر كثيرا بوقفي » ، لقد صرخت بهذا في وجهي ذات ليلة ، وأظنك تذكريين هذا جيدا ..

وأجابت عائشة في همن :

- لقد قلت أشياء كثيرة لم يعد عقلي يتسع لها ..

- ولكن عقلي أنا لا يزال يتسع لها ولثليها ، وقولك هذا خطأ كبير ، فنحن في حاجة اليك ، والجزائر في حاجة الينا ، وفي حاجة الى كل أبنائنا ، غير صحيح أن الجزائر لا تخسر شيئا بوقفك ، انها تخسر كثيرا ، وقد خسرت بالفعل لأن البعض منا قال في توبة ترمد أن الجزائر لا تخسر كثيرا بوقفي ، ...

وردت عائشة في هدوء وقد استمعدت شخصيتها الأولى وشخصية المرأة الجريئة المتهورة ..

- لا داعي لهذا الآن يا ادريس ، فقد مضى وقته والسنوات التي انقضت علينا منذ أن لت المأساة بنا ، مضت بنا كأنها كابوس ، انها لا تضي بخيال الا كصفحة من صفحات التاريخ الباليه ..

- أو لا أتعمد أن أقسو عليك ، ولا أعاتيك ، ولكني أحس في أعماقي بشيء ما يجب أن أقوله لك .. قبل أن يفوت الأوان ، فانا لمست وقتا تقاما أننا سنلتقي بعد اللحظة .. بل إن إيماني الذي لا أشك فيه اننا لن نلتقي ، وأنت لا تدوين مدى العذاب الذي تتخلله صامعنا من أجلك ، انك في الواقع

من معدن رفيع غير ان الأصوات العنيفة التي مرت بنا قد غلغلتها بالصدأ ، ويوم كنت تصرخين في وجهي بهذه العبارة التي حفرت في نفسي أجودا من الألم ، كان الثالث من أبناء الجزائر يلقون حتفهم بطريقة بشعة ، مئات لا يملكون شيئا حتى ولا لقمة العيش ، ولكنهم ماتوا في سبيل الجزائر .. بينما كنا جميعا هادئين في أماكننا في انتظار أن تحدث المعجزة ..

- انك متغير اليوم يا ادريس ، بل يخيل لي انك تلوم نفسك معي ..

- بل هذا ما أعنيه تماما .. انني لا ألوم نفسي فقط ، بل أنا أحس نحوها باحتقار شديد ، لقد رأيت منذ أيام في سوق المدينة حادث أعمانى عزا .. شاب لا يملك حتى ما يغطي به جسده .. يلقي بقنبلة بين جموع الفرنسيين في تشوة وكأنه يرقص ، وعندما قنارت الاشلاء في كل جانب ، وسال الدم في كل اتجاه ، كان يبدو مشرقا كأنه في رحلة زفاف ، حتى وهم يطلقون النار عليه ، كان كل ما في وجهه يتسلم ومشرق وعندما توى على الارض جثة لا حراك بها ، والتفت حوله الناس ابتعدت عن المكان هاربا .. فقد خشيت أن أمد يدي اليه فألوته !! ..

عندما وصل ادريس عند هذا الحد كان قد فقد قوته كلها ، فانهار فجأة باكيا ، ورجل مثل ادريس عندما يبكي لا يمكن لقوة في الوجود أن توقفه ، فكل شعوره بالندم وشعوره بالنقص واحساسه بالموقف المحايد الذي وقفه طويلا بين الشعب وأعداؤه .. كل هذا انفجر في نفسه فجأة فهرجا بصوت ..

فلم يجتمل فانفجر في بكاء متواصل عنيف ، حتى عائشة انتابها النحول لموقفه ، ففادرت مقعدها الى البار ، ثم عادت وفي يدها كأس ممتلئ به يدها لإدريس ، ولكنه لم يتحرك من مكانه وكأنه لا يراها ، فعاتت وعاتت الكأس ، ثم رجعت مكانها في عبوء ، وجلست مكانها معتدلة يقطه ، وقد زابتها كل شعور بالجزن والندم ، وعندما انقطع ادريس عن البكاء ،

ظل فترة طويلة مكانه لا يتحرك ، وإن كانت أفضاه المترجدة بين جنبه في سرعة تسمى عن شدة الثورة التي تشتعل في داخله ، ولأول مرة تشعر عائشة أن الظروف المحيطة بها أخطر مما كانت تظن ، وأبعد مما كانت تتصور !! .. أنها خطيرة إلى حد أن ادريس يبكي ، ادريس الذي كان يبدو دائما ثابت الايمان كالانبياء ، اعشق من البحر الذي يهدر خلف تلمسان ..

وهي نفسها كانت تبكي منذ لحظات ، ولكن أي فرق شاسع بين بكائها وبكائه ، كانت تبكي من أجل زوجها وولدها ، من أجل مشكلتها ، ولكن ادريس يبكي من أجل شيء آخر .. انه يبكي من أجل الأيام التي قضاهم محاولا بكل قواه أن يعتمد عن قلب المشكلة ، أن يكون عاقلا ، يفكر في قضية الجزائر ، ولا يشترك فيها ، ان دعوته الآن كانت من أجل الجزائر !! وهي تشعر الآن إلى أي حد كانت مشكلتها ناعية ، وكان مسلكها معيا وخاطئا ..

ولكن هذه الدموع التي سكبها ادريس عند لحظ غسلت نفسها وظهرت روحها ، كانت آتمة وهي الآن تحس بتور الشرف يضيء قلبها ، وكانت عتيبة ، ولكنها على استعداد تام لكي تتبع إشارة من ادريس بأن تقتل نفسها ، ولكن العجيب في الأمر أنها لا تقوى على اظهار عواطفها الصادقة ، ان ثمة حاجز يفصل بينها وبين ادريس ، وبين أهل تلمسان جميعا ، وربما بينها وبين أهل الجزائر كلهم ، لعل سببه هذا الاعتقاد الخاطيء بأنها امرأة ملوثة ، وهي ليست ملوثة ، ولم تكن كذلك في يوم من الأيام ، أنها لم تمنح نفسها لأحد بعد فقد زوجها ،

لا نفسها ، ولا جسمها ، ولكنها عندما فوجئت بنظرات الناس تحمل هذا الاتهام ، لم تحاول أن تنكره ، بل كان يلذ لها أن تتصرف بما يؤكده ، كانت عتيبة ، وقد ساقها العناد إلى هذا الطريق ، وهي تخشى أن يكون ادريس مثل غيره يعتقد في قرارة نفسه بانهم ، وإن كانت نظراته لم توجه إليها هذا الاتهام أبدا ، ولعل عفا راجع إلى طبيعته ، فهو مهذب إلى حد

بعيد ، انسان من طراز كالتى تسمى أن يكون لها .. توقفت عائشة عن تفكيرها عندما نهض ادريس من مكانه فأتجه إلى حوض الماء القريب من البئر ، فغسل وجهه ورأسه وعاد إلى مكانه مسرعا ، فالتفت عائشة تجلس هادئة حزينا تفشى في شربه ، وعندما استوى جالسا ، قال بلهجة سريعة ، ولكنها ثابتة :

- أرجو أن تكوني قد وصلت إلى قرار فالوقت يسرع بنا ونظرت إليه عائشة نظرة ضعيفة ليس فيها بريق التحدي الذي كان يشع دائما من عينيها ، وقالت في صوت خافت :
- لم أقرر شيئا ، ولكن على استعداد لأن أتبع إشارتك ..

ومضى ادريس يشرح لها الظروف المحيطة بالمدينة والأخطار المحيطة بها ، والجزيرة التي ستجتمعت عدا ، وقلق بشأن زوجته ، وبشأنها ، ثم اقترحه بأن تغادر المدينة مع زوجته إلى التلال القريبة من تلمسان حتى تهدأ المعركة ، وتكتشف الأمور ..

وإذ انتهى ادريس من حديثه ، سألته عائشة على الفور :
- ولكن كيف أتأخر تلمسان ، وإن لم يوجد يحيطون بها من كل جانب ، ويستولون المسالك على أهلها ؟ ...
وجد ادريس الفرصة سانحة لكي يطرح موضوعه مباشرة فهو كان يفكر منذ الأمس في طريقة للاتصال بصهره ، ولكنه كان يخشى أن يذهب إليه بنفسه ، حتى لا يتمكن العيون الذين يتبعونه من معرفة مكانه ، وهي الأمانة التي تداعب نفوس الفرنسيين منذ أن قامت المعركة ، وعائشة هي المخوفة الوحيدة في تلمسان التي تستطيع أن تدعبل إلى صهره دون أن يشك أحد في زيارتها له ، فهي ليست مشبوهة عند الفرنسيين بل هي لا تزال في عرفهم صديقة ، عندما انتهى ادريس على هذا القرار قال لها على الفور :

- انك ستغادرين تلمسان مع زوجته ، وستكونين في أمان مع الرجال الذين يتولون حمايتك ، وعندما تصلان إلى التلال ، ستتمكنان أياما عنك حتى يتحل الموقف ، وألحق بكما

ومن هناك تستطيع أن تدبر أمر المستقبل ..
وأجابت عائشة :

- أنتى على استعداد لأن ألقى أوامرك ، ولكن ما هو الطريق الذى يجب علينا أن نسلكه ، ثم استدركت قائلة .. هل تعرف زوجتك الطريق ؟ ..

- ان زوجتى لا تعرف الطريق ، بل لا تدري شيئاً عن رحيلها حتى الآن ، بل سندبر الأمر ولا ، وعندما ينتى كل شيء ، سنفاجئها بالأمر كله ، ولن يكون أمامها سوى طريق واحد لنتخار .. وهو الرحيل من هنا ..
- عظيم ، ولكن .. كيف سندبر الأمر ؟ ..

- سأسألك خطاباً الآن ، وما عليك الا الوصول الى العنوان الذى يحمله الخطاب ، وهو ليس بعيد ، انه هنا فى تلمسان على مسافة دقائق بالسيارة . سلمى الخطاب ، وتسلمى الرد عليه ، وعودى الينا بأسرع مايمكن ، فالمجزرة سوف تقع عدا ، ومكانك ليس هنا الآن ، بل سيكون فى الجبل مع الذين ذبحوا طفلك لتواجهن معهم الذين اغتالوا زوجك فى ذلك المقهى البعيد ..

وانكب ادريس يكتب الخطاب بسرعة ، فلما انتهى من الكتابة طواه داخل الظرف وكتب العنوان على عجل وسلمه اياها ، وقال لها وهو يتأهب للخروج ..

- عودى بسرعة ، فالوقت ليس فى صالحنا الآن ، وكل دقيقة تمر سيكون لها شأن بعيد ..

وعندما اصبح ادريس داخل منزله فوجئ بزوجته تقف على رأس السلم كمن كانت تتأهب لاستقباله . وعندما وقع بصرها عليه بادرت قائلة :

- أين كنت طول الليل ، لقد توقعت كل شيء .. الا ان تعود على قديمك ..
ولم يرد ادريس عليها بل جذبها من يدها ودخل بها الى

الحجرة ، ثم دفعها بيده فأجلسها على مقعد امامه وقال لها على الفور :

- ليس الآن مجال الحديث فى هذا الأمر ، سأحكي لك فيما بعد كل شيء عندما يكون أمامنا متسعاً من الوقت ، أما الآن فعليك أن تحملى معك كل ماتستطيعين حملة لتفادري المدينة فى الليل ..

وشهقت زوجته فى ذعر ..
- اغادري المدينة ؟ هذا مستحيل . لن اغادري تلمسان الامعك ؟

- دعينا من العواطف الآن ، وحكى العقل فى الموقف الغريب الذى نواجهه ، ان وجودك معنا هنا لن يفيدنا شيئاً ، بل ربما كان معنا علينا . وعندما يبدأ الهجوم سيكون كل منا فى عالم آخر لا يدري مما يدور حوله شيئاً . وستكونين يا نظيرة هدفاً لنزوات الجنود وجرائمهم ، وأنت تعرفين أكثر منى ماذا وراء خمسة آلاف جندي فرنسى مسلح أطلقت لهم حرية التصرف فى المدينة ..

وارتفع تحيب الزوجة بالكاء وهي تنصت الى زوجها . انها لم تفكر قبلاً فى مغادرة المدينة وحدها . وهاهى تتلقى الأمر بضرورة مغادرتها لتترك زوجها خلفها يواجه وحده مصيره بلا نصير . وقلباها يحدثها الآن انها ستبقى وجيدة أبد الدهر ، فلن يترك الجنود زوجها بفلت من أيديهم . سيموت المسكين فى ريعان شبابه كما مات الكثيرون من قبل . ولكن ما الحيلة والمظروف المصيبة تصدر أحكامها بالاعتماد على رجال الجزائر ، وليس هناك حل وسط للموضوع ، الاعداء أو الغاز ، وهى لا ترضى لادريس العار أبداً ، فقد عاش حياته كلها رجلاً مرفوع الرأس كالرأية . أية أحداث ضخمة مرت بحياتها منذ أن تعرفت اليه ، وأحبته . أحببت فيه كبريائه وغموضه ، وبنبائه المتين ، وهيبته الجميلة ، وازدانه الوقور .. وإخلاصه الذى لم تشك فيه لحظة حتى خلال الليالى العديدة التى قضتها عند عائشة . كانت فقط تشعر بغيرة قائمة ، فهى تحبه وتغاف عليه . وكانت

ويبدأ على الزوجة دعر شديد وآلم بالغ وكأنه عزز في قلبها
نصلاً طويلاً ..

وأخذت تردد الاسم في استنكار بالغ ، وعى تصرخ من
أعماقها :

- كيف تجرؤ على ذلك . انها قدرة تفعل أى شيء في سبيل
نفسها . ستعرف مكانهم ، وسيعرف الفرنسيون ذلك على الفور .
اية جريمة ارتكبتها الآن في توبة اشفاق على مصرى ..

كانت الزوجة تصرخ وكأنها مسعورة . وتنتظر الى زوجها
نظرات حاقدة ملتهبة بعواطف شتى يدري هو كنهها . وعندما
انتهت ثورتها العارمة ، رد عليها في هدوء :

- انها ليست قدرة ، وليست خائفة . انها الآن في مهمة
في سبيل الوطن . لقد فقدت المسكينة زوجها ، وفقدت وحيدها ،
ولكن بقيت لها الجزائر ، وهي أحرص عليها منا ، اذ لم يبق لها
غيرها ..

وستعادين تلمسان معها ، فهي ليست مشبوهة عند
الفرنسيين . بل حتى لو قطعوا عليها الطريق فسيدعونها تمر
.. فهي لا تزال - في عرفهم - صديقة . وستكونين معها في
امان . فهي على استعداد لان تقتل نفسها في سبيل نجاتك .
لقد ولدت عائشة من جديد وعلمنا ان نسي الماضي لو كان ثمة
ماضى لها . لقد دفننا ما نحن الى هذا الطريق بموقفنا حيالها .

وانا واثق ان هناك الكثيرات مثلها في الجزائر يتحينون فرصة
نفتح فيها لهم اخطانا فيرتمين فيها بصمدق وبحرارة ..
لقد صاحبت تصرفاتنا اخطاء كثيرة في بداية حركتنا ، حتى
اننا كنا نضع كل من يرغب في الاتصال بنا تحت منظار عجب
ليكشف لنا عن حقيقة معدنه .. وكان المنظار قاصراً فلم يلم
بواجبه ، كان يكشف لنا عن الناس في جانبين اثنين فقط .
فهو اما خونة ، واما مخلصين لنا . وهكذا ترى اننا اخطانا
جميعاً ، فقد كنا نبحث عن ملائكة . ومن الصعب جدا العنور
عليهم الا ان شمع حاول الاستعمار عشرات السنين قتل

معه دائماً عندما ألقى القبض عليه ، وعندما طرده من المؤسسة
وعندما ضيقوا عليه في الرزق ، وحاربوه في معاشه ، وطاردوه
في كل مكان . وكان هو دائماً حادى ، رزين لم تحركه صدمة
الاحداث أبداً ، ولم تزعجه عن موقفه ، وهي تشع الآن بندم
قاتل ، فهي السبب في كل ما أصابه من أضرار . فلولا ان كان
الآن حراً يقف بين الفريقين المتقاتلين موقف حياد . فهي شقيقة
الرجل الذى يقود الحملة ضد الحونة داخل المدينة . الناس في
تلمسان يعرفون هذا ، والفرنسيون يعرفون هذا .. ومن أجل
هذا أيضاً نالت كل هذه الأوزار . كانت تبكى وعقلها الباطن
يتحدث اليها . وتنتظر الى زوجها كالمجنونة ، فقد تكون هذه
آخر مرة فراه ، بل هي موقنة انها آخر مرة . وان تحبها
الآخيرة له ستكون بمثابة وداع . ولم يكن يبدو عليه أنه يهتم
بشيء آخر ، سوى مصير المدينة غداً عندما تنشب المعركة .
كان يقاب أوراها في يده ، يبحث في ادراج مكتبته عن اشياء
قد تكون ذات فائدة في الساعات العصيبة المقبلة . وغادرت
نظيمة الحجره تبحث عن حاجياتها الضرورية لتستعد للرحيل .
ولم تضى ساعة حتى كانت تقف امامها من جديد تنظر اليه في
رعب وفي قلق . وعندما رفع رأسه اليها قال على الفور :

- ستعادين تلمسان في الليل ، وسألق بك في المساء اذا
قدر لي ان اقلت من نيران المعركة .
وقالت الزوجة وصوتها تخنقه العبرات :

- ولكن كيف سأغادر تلمسان ؟
- لقد أرسلت لاشيك الآن اطلب اليه تدبير هذا الامر .
وسأيتنى الرد سريعاً .. وسأعرف مكانك بالطبع فسأصل
به فوز مغادرتي لتلمسان .

- اذن فقد قضيت الليل عنده ؟ ولكن كيف استطعت الافلات
من العيون التي تحيطك ؟ ..
- لم اذهب اليه ولم أزه . ولكني ارسلت اليه رسولا ..
ارسلت اليه عائشة .

روحه والقضاء على خير عناصره . ان قضيتنا في حاجة الى كل
أصل الجزائر والأخطاء الصغيرة لا تؤثر في معدن الناس ولا تتحكم
في سلوكهم . ولكن موقفنا اليارود منهم هو الذى يدفع بهم فى
هذا الطريق الخاطى الى مالا نهاية ..

كان الزوج يلقى نظرة أخيرة على السلاح الذى يحمله ،
عندما دق الباب دقات سريعة متتالية ، وبعدها برزت عائشة
مجهدة تلهت كأنها قطعت الطريق وثبا على قدميها وهب ادريس
واقفا يستقبلها فى لهفة ويسألها اذا كانت قد وفقت أم لا فى
مهمتها الصعبة ، وارتاحت نفسه كثيرا عندما هزت عائشة
راسها علامة التوفيق ..

وعندما استطاعت التقاط أنفاسها المجهدة أخقت تصف له
على الفور كيف ذهبت وكيف التقت بالرجال هناك ، نفس
الرجال الذين ذبحوا ولدها ..

— كم ضاقت نفسى بهم عندما وقع بصرى عليهم . ولكن بعد
حديث طويل خرجت من هناك وأنا مرثاة الى أن الذى فقدته
كان مساهمة منى فى المعركة . ما أغرب منظر هؤلاء الرجال
وهم فى هدوتهم الغريب وكان أحدا فى رعبية لا تمر بهم ..
وكم امتلأت نفسى حقا على حياتى وأنا أجز قدمى خارجة من
هناك ، انتزعهما بصعوبة وكأني انتزعهما من وحل كثيف يغطى
وجه الأرض .

كانت نظيمة تستمع اليها غير مؤمنة بما تقول عائشة . هذه
المرأة عاشت حياتها حتى أذنيها فى الحياة ، وهل هناك حياة
أكثر من فتح أبواب منزلها لرجال الجيش الفرنسى ، والمعركة
ناشبة ، لا يمكن أبدا أن تتحول دفعة واحدة هكذا ، لابد أنها
حيلة . هذه المرأة شؤم وستجر المصائب على الجميع كما جرت
المصائب على زوجها وحينئذ .
ولكن الزوجة كتمت شكوكها فى نفسها ، واستسلمت

للمصير الذى قرض عليها ، وأصاحت سمعها جيدا لعائشة
وهى تقول :

— سنذهب فى الليل الى أشجار الكروم . سيكون فى انتظارنا
دليل هناك ، وستعبر الوادى ، ثم نتجه ناحية الشمال الى تل
يمعد عن هنا عشرة أميال ، ولا أضل أنها ستكون رحلة ممتعة ،
ولكننا سنقطعها على أية حال ..

— اذن أمامك ساعة واحدة لتتأهبى للمسير ..
وردت عائشة على الفور :

— أنا متأهبة بالفعل ، فقد عرجت على منزل قبل أن أحضر
الى هنا ..

— مع السلامة اذن ، فالوقت يمر بسرعة . وكان بودى أن
أذهب معكما الى هناك ، غير أنى أخشى أن يصيبكما من وجودى
معكما ضرر لا أدرى مداه .

كانت ساعة الوداع عصبية للغاية ، ارتمت الزوجة فى
أحضان زوجها تنسج بالكاء ، ووقفت عائشة فى جانب بعيد
متأهبة للرحيل ، وقد حملت معها متاعها القليل وصورة التقطت
لها مع زوجها وولدها حرصت على أن تأخذها معها فى رحلتها
الغريبة الى مصرها للجهول . ولكنها لم تدر سببا للقلق الذى
تحسه فى نفسها وهى ترى نظيمة تعانق زوجها وتلتصق به
حتى كأنهما خلقا ملتصقين ، وسيظل كل منهما ملتصقا بصاحبه
الى آخر الزمان . انها تقبض نظيمة فعلا ، بل تحسدها أحيانا
لأن لها زوجا من هذا الطراز . وهى تحب ادريس فعلا وتتمنى
لو كان لها . ولكنها لم تكرر نظيمة أبدا ، لا لهذا السبب ،
ولا لغيره من الأسباب ، بل هى تسمو نحوها الآن بحب ،
ومصبرها الذى ارتبط بها فى هذه الرحلة العجيبة سيزيد من
حبها احتما وسبقوه .

وعندما انتهى الزوجان من العناق ، تراجعت الزوجة الى
الحلق ، ثم استدارت على عقبها ومضت نحو الباب لا تنظر خلفها

فقد كانت الدعوى تملأ عينيها ، وتحجب الرؤية عنهما . .
وتقدمت عائشة من ادريس فمدت له يدها تصافحه . وتمت
لو أبقث يدها في يده الى آخر العمر . ولكن الزوجة التي تنتظر
عند الباب ، والظروف نفسها لم تكن تسمح بأكثر من هذا . .
فتقدمت في جراه وقبلته قبلة صغيرة . . في قبه . ثم استدارت
هي الأخرى تقطع أرضية الحجرة في خطوات ثابتة نحو الباب
المخرج حيث تنتظر نظيمة في سكون تحاول أن تبتمل دعوعها
في صمت . .

جلس ادريس يفكر بعد رحيل زوجته وعائشة في المصير
الذي كتب عليه أن يواجهه غدا ، وهو مصير لا يحزنه كثيرا غير
أن تفكره كان دائم التركيز على الطريقة التي سيتم بها . هل
سيقتله الفرنسيون ميتة شريفة ، أم أنهم سيعيدون الى تمزيق
لحمه قبل أن يزعموا روحه بضربة واحدة . ان الافلات من المصير
ضرب من المستحيل . ولكنه سيقاوم جهد الطاقة ، ويكفيه انه
سيحقق أمنية طالما استبدت بنفسه . . وهي الموت في المعركة
وهو سعيد الآن اذ لم ينجب أطفالا يواجهون الضياع من بعده
ليس هناك من يهجم أمره الا زوجته . وهي تستطيع أن تعيش
بعده على أية حال .

وسرح بعقله في أمر عائشة ، هذه المسكينة هي الأخرى ،
أية مفاجآت عجيبة سوف تهب نفسها حتى القاع خلال الاغوام
التي سيقتدر لها أن تميشها في المستقبل . وتحسن شفيتها
بأصابع مرتعشة . . فعلى هذه الشفاء طبعت عائشة قبلة
كان يتعنى لو استمرت الى الأبد . فهو الآن بينه وبين نفسه
لا يخشى أن يعترف بأنه أحبها بعنف ، وقمى لو كانت له
زوجة من هذا الطراز ، جريئة ومتهوره ، وهي الصفات التي
كان تنقصه دائما . .

كان الليل قد حيم على المدينة ، والحركة داخلها قد أصبحت
مضطربة ، فعلى طول الطريق الرئيسي تدفق الآلاف من سكانها
كانهم نهر يتحدر بسرعة رهيبه وقت الفيضان ، كل منهم يحاول
أن يجد له مهربا منها .

ففى الصباح الباكر سوف ينفذ الفرنسيون انذارهم ،
وسيقنحون المدينة من ثلاث جهات بحثا عن الفدائيين والسلاح
. . وكان الصراخ المنبعث من الاطفال والنساء أشبه بصوت
أمواج بحر تاتر تطلم صخر الشاطئ بحطام سفينة غارقة .
ولكن هذا البحر المتدفق من البشر توقف فجأة ، فقد سدت
الطريق عليه مئات العربات التي راحت تجرى فوقه تحصل
اغنياء المدينة في اتجاه التلال . واختلطت العربات المتجونة ،
بأمواج البشر التي راحت تهول مذبذورة تتلمس طريقها وسط
الضجيج والصخب . .

وخارج المدينة كان السكون يشمل كل شيء . وعائشة
ونظيمة تقطعان الوادي الضيق في حذر ، والدليل يتقدم القافلة ،
وعائشة تقنقى أثره ، ومن رايها تسمى نظيمة منهوكة القوى
شاردة اللب ، تكاد تفقد عقلها كلما فكرت في المصير الذي
تركت زوجها يواجهه . ولم تكن رحلتها مسهلة ، بل كانت
مخوفة بالخاطر . وكان عود حطب واحد يتكسر تحت أقدام
احدها من قبيل بالقضاء على الجميع . وعند الفجر كانا قد وصلا
مع الدليل الى التل الذي تنتهي الرحلة اليه . وعندما جلست
للمراتان جنبها الى جنب فوق التل ينظران الى بعيد في اتجاه
تلمسان ، كانت كل منهما تضع يدها على قلبها ، فقد حانت
الساعة وسيبدأ الهجوم بعد لحظات .

وعندما انطلق أول مدفع يقصف المدينة بقذائف لها صوت
الرعد ، هبت المرأتان على أطراف أصابعهما وكانهما يحاولان
أن يريا بأعينهما ما يدور داخل تلمسان . وتواتت القذائف تدك
المدينة . والسنة النار أخذت تنلعل وترتفع في الفضلاء التي
مسافات بعيدة ، وحجبت السماء عن تلمسان وعن التلال
الحيطه بها مظلة كثيفة من الدخان سوداء كريمة خيمت على
المدينة وكانها كايوس مفزع ثقيل . ولم تتحرك احدها حتى
الظهر . كانت الطلقات قد صذات ، ومظلة الدخان المنعقدة في

الكون كله ، انقطع سيل القارين من المدينة ، وأصبح الطريق
إلى امتداد البصر حالياً تماماً ولا حركة عليه ..
وأصبح الأمل ضعيفاً في عودة ادريس هذا المساء على
الأقل ..

كان الاعياء قد هد كيان المرأتين ، وسلب الحيوية ، فارتجيا
على أرض التل يحاولان التوم رغم آناة الجرجى ، وصراخ
الأطفال الذين جنوا عندما نشبت المعركة ، ووقع اقدام الجنود
الذين يحاولون تنظيم الصفوف على التل استعداداً لهجوم
مفاجيء قد يشنه الافرنسيون عليهم ، غير أن الاعياء الذي
استبد بهما كان أقوى من الصراخ والألتين ووقع خطوات
الجند الثقيلة ، وعندما تأهبت عائشة للتوم مدة يدها في
الظلام تنجس مكان لطيفة ، وعندما اشتبكت أيديهما
ضغطت كل من المرأتين على الأخرى في حنان : وقالت عائشة
في همس مسموع :

- سيعود في الصباح ، انه حتما سيعود ..
وبكت لطيفة ولم تتكلم .. ثم راحا في نوم عميق ..

وستمضي أيام طويلة وصفا في انتظار الرجل الذي أحبتة
كل منهما في صدق .. سينتظران عودته طويلاً .. ولكنه لن
يعود .. فقد كتب ادريس صفحة مجيدة في تاريخ تلمسان ..
كتبها بدمه ..

سما المدينة أخذت تنفثع .. تحت سيطر الريح التي هبت
تدفعها في اتجاه البحر ..
- لقد هذا كل شيء الآن في تلمسان . وتغير كل شيء فيها
أيضاً ..

هكذا همست عائشة ، وهي شبه مذهولة . وعندما عادت
كل من المرأتين إلى مكانها فوق الأرض ، نظرت كل منهما
إلى الأخرى نظرة غريبة . ولم يلبتا أن تعانقا بشدة .. وقد
انحروقت عيونهما بالدموع ..

وعندما صدأت كل من المرأتين بعد البكاء العنيف ، كان
النهار قد أوشك على الزوال ، والطريق الذي يضل بين التلال
وتلمسان يبدو أحياناً فوق القمم ثم يخفى خلفها وأنجار
الزيتون والنرقوق وزراعة الكروم تمتد على جانبيه . وأزديجها
يعبق في الجو ، وأسراب البجع تحلق فوقه ، والجماعات التي
استطاعت أن تفر من المذبحة تتحرك على الطريق كأنها أشباح
يجر بعضها بعضاً في اعياء شديد ، الذين استطاعوا أن
يصلوا منهم إلى التل لم يتمكنوا من صعوده ، فارتجوا عند
السفح وراحوا في عثوبية ، حتى الدماء التي تغطي وجوههم ،
وتلطيح ملابسهم الممزقة بقيت مكانها ، وقد تجملت واستحالت
إلى طين بعد أن احتلقت بها الأتربة والرمال ..

فئة جنود من صفوف المجاهدين كانوا يظهرون أحياناً بين
الجموع التي يلفظها الطريق ، جنود فقدوا بنادقهم ، وفقدوا
ملابسهم ، ووقفوا بعض أجزاءهم ، بعضهم يستند على ذراعه
آخر ، وبعضهم يترخف في اعياء ، والذين كانت جراحهم أقل
بشاعة كانوا يجرون أقدامهم في يأس وعيونهم مثبتة على
التل الذي يبدو في نهاية الطريق ، وكلما ظهر واحد منهم
تطلعت المرأتان في اهتمام نحوه ، فمن الممكن أن يكون هو
ادريس ، ولكن الحبة كانت من تصيبهما دائماً كلما وصل
الشمع الذي يتحرك على التل ، فإذا أصبح قريباً منهما
هجمتا عليه في شوق يسألانه عن ادريس ، فإذا أجاب بالنفي
رجعتا إلى مكانهما صامتتين ، الحسرة تملأ قلوبهما والدموع
تجرب الرؤية عنهما ..

وإذ به أخذ المساء يترخف على التلال ، وعلى الطريق ، على